شعر غجري
تتطاير منه الحجارة

مختارات قصصية

شعر غجري
تتطاير منه الحجارة

شريف صالح

٢٠١٧

على سبيل التقديم

تضم هذه المختارات أربعين نصًا متفاوتة الطول للكاتب شريف صالح؛ بعضها يتجاوز عشر صفحات، وبعضها الآخر لا يزيد على سطر، وهي خلاصة تجربة لكاتب أعطى للقصة القصيرة بإخلاص ودأب لأكثر من عشرين عامًا، نشر خلالها ست مجموعات قصصية.

من مجموعته الأولى «إصبع يمشي وحده» التي نشرتها مصر المحروسة عام ٢٠٠٦ اخترنا نصوص: لوكا، قلب إسكندراني، يمر هناك، والرحلة البيضاء.

ومن مجموعته الثانية «مثلث العشق» الحائزة على جائزة ساويرس عام ٢٠١١ والصادرة عام ٢٠٠٩ اخترنا قصص: جر الخيط، شعر غجري تتطاير منه الحجارة، مينادا، وخطيئة الكعب.

وقد آثر الكاتب في مجموعته الثالثة «شخص صالح للقتل» الميل إلى التكثيف والأقاصيص التي لا تتجاوز ثلاث صفحات؛ حيث صدرت المجموعة عام ٢٠١١ عن بيت الياسمين، ومنها نصوص: الطاولة رقم ٧ في جروبي، اجتماع سري للآلهة، فتاة أوباما، يد

فاطمة، صوت الموت، موسيقى للأعرج، الزخنوق، المدرس والسلطان والمسيح، الكاتب والقارئ في المدينة البحرية.

أما المجموعة الرابعة «بيضة على الشاطئ» الحائزة على جائزة دبي الثقافية، التي صدرت في طبعتين حيث وزعت الطبعة الأولى مجانًا مع مجلة دبي عام ٢٠١٣؛ فاخترنا منها: الغواية الأولى، الطواف وسارق النحاس، عصر السنجة، والخناجر السبعة.

اشتغل شريف صالح في خامس مجموعة على ما يسمى القصة القصيرة جدًا، وقدم أكثر من ستين نصًا، لا تزيد على صفحة واحدة، وأحيانًا عن سطر؛ حيث صدرت «شق الثعبان» عن دار صفصافة ٢٠١٤... ومن نصوصها: معارك قديمة، زوجتي والحية، نزهة على بسكلتة، وردة من حبيبة فيليبب، جمال لا يقاوم، طريقي إلى الله، العدسة المكبرة، عشق كلابي، أقصر قصيدة في التاريخ، ملح البحر، وملاكمة الظل.

وعن مؤسسة الأخبار صدرت سادس مجموعات الكاتب بعنوان «دفتر النائم» عام ٢٠١٦، وهي تجربة اعتمد فيها صالح على تدوين أحلامه وإعادة إنتاجها وفق آليات سردية، ومن نصوصها: رحلة النهار والليل، تووت، كوخ ست الحسن، قصر الأموات، الخالة اليابانية، مملكتي مقابل امرأة، هروب جسدي، وخطاب شكر للرواد الخمسة.

لوكا

رأيت البنت بشعرها الأجعد ورائحة العرق، والبنت رأتني... إيقاع نظراتي كان سريعًا خجولاً. لا أعرف الميناء ولا لغة الكلام هنا. غمز زميلي وقال:

ـ تعال.

قلت:

ـ لا.

كانت تبتعد... تسير مع البنات، وبأذرعهن تعلق سلال الخوص وتتأرجح. ملأنها بالسجائر المستوردة والمناديل وأكياس اللب والسوداني، يتسللن بين الوجوه المسرعة والحقائب والصناديق الثقيلة التي تغلق امتداد الرصيف.

جذبني زميلي من ذراعي:

ـ تعال نذهب إليها.

ـ نذهب لمن؟!

ـ البنت السمراء.

هـززت رأسي رافـضًـا. ثم رأيـته يمـضي ويـتـكـلم مـعـهـا. كـنت مشدودًا؛ لا أعرف لماذا ـ إلى رائحة عرقها المتبلة ودقة ملامحها البرونزية. كان لها فم يشبه فم السمكة، ورأيتها تتلفت ناحيتي ثم اختفيا معًا داخل أحد الممرات الجانبية. كأن زميلاتها لا يبالين بشيء يحدث في الممر، يلوحن بأيديهن... يتبادلن القبلات مع البحارة... مع زملائي جنود حفظ السلام ذوي القبعات الزرقاء... مجرد قبلات بريئة تتطاير في الهواء.

لماذا لا أذهب وأتلصص عليهما في الممر؟ لماذا لا أتبع رائحة العرق الحارة الدافئة؟! لا بد أنها انزوت ـ منساقة ـ في آخر الممر... لن تقاوم قبلة طويلة لها ملمس الحرير الدافئ... وربما يفعل الآن بهدوء وهما واقفان في العتمة.

لماذا لم أذهب أنا من البداية؟!

كانت الباخرة التي تقلنا راسية تجأر بلا نهاية، تدوي دويًا مبتورًا غليظًا متحشرجًا والماء الراكد يهتز حولها في موجات خفيفة، زملائي أسرعوا في اتجاه واحد وعيونهم لا تنظر إلى شيء. على ماذا يستعجلون ونحن في النهاية نساق للقتل على الحدود بين بلاد وبلاد؟! شاهدت إحدى الفتيات تدس إصبعين في فمها وتصفر لزملائي وهم يصعدون سلالم الباخرة.

تواريت بعيدًا. لا أرغب في العودة إلى الباخرة ولا أقدر أن أذهب إلى الممر. الليل كان يهبط بهدوء، وظلت صفحة السماء رمادية بلا نجوم. رائحة رطبة عتيقة تنتشر في سكون الميناء الصغير. لمبات الصوديوم على امتداد الرصيف تخترق ضباب الليل بأشعة واهنة. أخيرًا، زميلي يخرج وهو يضبط القبعة الزرقاء على رأسه بعناية. كانت البنت تجري وراءه وتصيح:

ـ آجون نيجر نيررك؟ *

أمال قبعته كما كانت ويده في جيبه، ربما يصفر الآن يدندن لا يبالي بشيء، وهو عائد إلى السفينة التي أعطت إنذارًا أخيرًا قبل الإقلاع.

البنت تسمرت في مكانها والسؤال ينساب بين شفتيها المتلئتين:

ـ آجون نيجر نيررك؟

كانت شفتاها بلون التوت. استدارت بعيدًا تقطع الرصيف إلى نهايته.

الأخريات يتسكعن ورائها بخباثة؛ ثم انفجرن ضاحكات.

كانت السفينة تغادر من دوني، وفجأة رأيت البنت تجري. مرت بي دون أن تراني، ورغم ذلك أنزلت قبعتي الزرقاء على عيني أكثر لا أريد أن أتواطأ معها. كانت ـ وهي تجري ـ أشبه بكانجارو تائه.

(*) لهجة تشادية معناها: متى سأراك ثانية؟

عيون البنات تتابعها:

ـ لوكا!

ـ لوكا!

البنت اسمها لوكا. لها فم سمكة وشفتان بلون التوت ورائحة متبلة واسمها لوكا.

البنات ما زلن ينادين ولكنها اختفت.

لوكا اختفت، والأخريات جلسن صامتات على حافة الرصيف، يراقبن رقرقة الماء والأضواء والظلال المنعكسة، وحين كانت تتراءى أنوار إحدى السفن في البعيد كنَّ يقفن ويلوحن بقبلات وهمية وتنهدات حارة لرجال غير موجودين.

قلب إسكندراني

خرجت من وراء الجامع وشتمت وبصقت:

ـ أنا عزيزة بتاعة حسن يا ولاد الكلب.

صدرها ممتلئ يعلو ويهبط ببطء. كانت وحدها في هذا الوقت المتأخر، ترفع عينيها تراقب الضوء وهي مزمومة الشفتين تمامًا. ضوء بعيد في نوافذ متناثرة، ومئذنة جامع الاستقامة مطفأة حاليًا وصامتة. تقف وظهرها لكشك الشرطة، يجلس الأمين وراء الزجاج الشفاف ومعه مجند يقف كالديدبان بالسلاح، ويهش الهواء بيده من وقت لآخر. سنترال الجيزة بإضاءته الشاحبة يمتد ساكنًا مستطيلاً، وعلى جداره الخارجي أربعة تليفونات منفصلة. عندما وصلتْ إلى أول تليفون زغردت زغرودة رنت في سكون ميدان الجيزة كله.

ترفع السماعة وتبتسم. تقرأ آية من القرآن وتقول بصوت منغمٍ وجافٍ: «سكت الله العظيم»؛ ثم تقرأ آية أخرى وتقول بنفس الأداء: «سكتَ الله العظيم». تفتح فمها عن أسنان متفرقة صفراء:

ـ «آلو... آلو... لو...»

يبدو أن الخط انغلق بتكة واحدة ولعلها أخطأت النمرة. تضغط على زر النحاس المستدير وهي مستفزة، لم تجد العملة راسية كالعادة في قاع التليفون، زفرت وتلفتت حواليها. كان الأمين يخرج من الكشك الزجاجي والجندي وراءه بالكرسي والسلاح على كتفه. يجلس الأمين وسط الشارع الخالي بعيدًا عن الكشك الخانق الرطب.

حين رأتْه يجلس هكذا ويبصق ألقت السماعة تتدلى في الفراغ؛ ثم مشت إلى تليفون آخر بعيد عنه، وقبل أن تضع آخر قطعة عملة في يدها وتكرر ضغط الأرقام قرأت الآية نفسها ثم رفعت السماعة.

هناك جرس طويل متباطئ. تنكس نظرتها على ثدييها وبطنها، وتنتظر أن يرد الآخر:

ـ آلو... الصول محمد... قولوا له عزيزة بتاعة حسن.

المجند استدار ينظر إليها في حركة آلية من تحت غطاء الرأس الأسود؛ ثم ابتسم وعاد إلى وضعه السابق يتأمل واجهة عمر أفندي المغلقة حاليًا، وراح يهش الهواء ودخان سيجارة الأمين.

كان الجرس الطويل المتباطئ قد انقطع فجأة تلاه جرس سريع يتلاحق نابضًا.. نقاط صوتية تتقاطر في أذنيها.. رتيبة.. تهز السلك الفضي مرة أخرى، لا تظن أنه لا دخل له بشيء، تقف ورأسها في الورقة المكرمشة تعيد من خلالها ضغط الأرقام، وتدلك ذقنها، تنظر في غضب والسماعة لا تزال على أذنها. تهز رأسها مرات ومرات بطفولية، تبتسم فجأة، نظرات لامعة محايدة:

ـ آلو... القطار الحربي وصل يا جدعان.. وكان فيه مكان في العتمة... وفي مكتب الصول قطة والدة، وولادها خربشوا ضهر إيده... والدم... خد تعويض ألف جنيه وأنا واقفة بالقميص والسوتيان... والدم... قلت اتصل بعبد الحليم حافظ في الطربة وأقول له... الصول إداني ولاد القطة وفوقهم بريزة. قال لي: اركبي ترماي حلوان... أنا فتحت بالبريزة مكتب بوسطة بس الجوابات كلها لعبد الحليم حافظ... أصل أنا عندي فرح الليلة... آه يا واد يا أسمراني دا أنا قلبي إسكندراني... آه يا واد يا إسكندراني... دا أنا قلبي أخضراني..."

زغاريد وشخللة بالصاجات في الميدان كله، والأمين أطلق المجند وراءها، وقال له: امسكها.

يمر هناك

(إلى فهمي صديق أبي في حرب الاستنزاف)

بقيت رائحة اليود في أماكنه الخالية.

رحل ذات نهار مع هؤلاء المشاكسين حليقي الرءوس، ومن إجازة إلى أخرى كان يأتي مكدودًا، وقد أبقى غطاء الرأس في يده، وتتبدل الرائحة ـ رائحة اليود ـ بالملوخية وعطر صابون الاستحمام. في إجازة صيف أنجب أخاك الأكبر، في إجازة صيف أخرى أنجبك.. ثم رحل مع هؤلاء الجنود المشاكسين.

* * *

في ساعة الليل الأخيرة دوي الارتطام.

في ساعة الليل الأخيرة كان الموت يمشي بين كثافة الدخان والغبار.. وحتى تلك الساعة كان أبوك فرحًا.. فرحًا بالخوذ الصفراء اللامعة وبالأحذية الطويلة، مثله مثل سائر الجنود المشاكسين حليقي الرءوس؛ لكنها ساعة الموت! ساعة لألعاب النار، التي تدوي ثم تتطاول هرقلية أمام أعينهم جميعًا، وأبوك راح يتقافز

يهرول بالسلاح في كل اتجاه.. يتوقف كي يلهث، يرى الجنود المشاكسين يموتون؛ الخوذ الصفراء اللامعة، الأحذية الطويلة خلعوها بحرص وهم يموتون:

ـ اعطها لأهالينا وهم يعرفون كل شيء.

* * *

وتبقى أبوك، وتبقت رائحة الدخان.

كان يجلس في حقل الجثث بانتظار شمس النهار الآخر؛ فلما بزغت نهض يحلق شاربه الأخضر، بشفرة زجاج حادة مستوية حلق الشارب الأخضر دون مرآة! هكذا بدأ أبوك النهار الآخر بحلاقة مأساوية للذقن والشارب! ثم رص خوذ الجنود المشاكسين فوق رأسه، وقبلها ربط الأحذية ببعضها في ذيل طويل يجرجره خلفه، وقال لنفسه بصوتٍ مرتفعٍ:

ـ على بركة الله

ثم سار عائدًا إلى حدود الوطن.

* * *

طول النهار كان يسير...

كان يسير وقطرات العرق الساخنة تسقط على عينيه، قد تميل الخوذ الصفراء قليلاً، وربما طابور الأحذية يتعثر في الصخور وراءه؛ لكنه لا يتوقف، من أول ضوء إلى آخر ضوء يسير.

فلما جن الليل قال: أضع حملي وأستريح؛ فلما رأى الجبل شامخًا قال: آوي إليه؛ ثم نام عاريًا ممدد الجسد.

* * *

توقف فجأة بعد أسبوع من السفر باتجاه الشمس، كان يريد أن يعدل الخوذ التي مالت كثيرًا، تساقطت، يحاول أن يلحقها فتتساقط الأحذية المعلقة.

* * *

لأول مرة رغم سفره الطويل يسقط أبوك فوق أنقاض حمله، لأول مرة تتبعثر خوذ وأحذية الجنود المشاكسين حليقي الرءوس. آنذاك كان العم كامل يكتب الكتاب على أمك العفية البشوشة، وهما بجلبابين نظيفين ليس أكثر، تم كل شيء... ثم إن أمك انتظرت عامين قبل أن تأتي بالعم كامل إلى الدار كي يربيك أنت وأخاك، ولماذا تصبر الأيام والليالي وأبوك ليس في كشوف العائدين، وليس في كشوف الجثث؟

* * *

توقف يعدل الخوذ مرة أخرى كما كانت، ويعدل الأحذية الطويلة في مكانها؛ ثم رفع بصره إلى الأفق البعيد وتنهد:

ـ آه يا حدود الوطن!

هكذا توجع أبوك العائد إلى حدود الوطن.

أشد نحافة، أشد سمرة، دون أن يقتل أحدًا.

أحيانًا يستلقي تحت تبة، وأحيانًا في ظل شجرة لا يعرفها وقتًا لا يعرفه؛ ثم يستيقظ مفزوعًا واللعاب الأحمر يسيل من فمه: كيف ينسى الأسماء؟! أسماء الجنود المشاكسين حليقي الرءوس! والعناوين، أين العناوين؟ لماذا لم يكتبها؟ ولماذا يكتبها؟ كان يحفظها كلها. العناوين، المقاهي، نواصي البلاد!

لم يعرف أبوك أبدًا أنه أكل ورق الشجرة الأزرق، ومكتوب على من يأكله أن يجوع ويعرى، أن ينسى الأسماء وعناوين الجنود.

* * *

وجاء العم كامل بالبشرى... لك... لأخيك... لأمك...

في ليلة صيف رمضانية، جلس مع الأم يشاهدان فوازير نيللي. أشعل سيجارته بفلتر العاج وراح يدخن؛ ثم جئت وجاء أخوك بعد صلاة التراويح. كان العم كامل يسحب نفسًا متقطعًا ثم يقول: أحدكما من حقه الشقة، والثاني يعفى من التجنيد. ليس هناك أخبار عن أبيك، ولن تكون هناك أخبار بعد اليوم، والحمد لله أن الحكومة تعفي أحد الذكور من التجنيد، وتمنح الأسرة شقة في المساكن الشعبية.. أخوك الشيخ المستمسك باللحية والثوب القصير استمسك بالشقة أيضًا وله وجهة نظر معقولة، هو بالفعل أنهى التجنيد ثلاث سنوات بالتمام والكمال؛ لكنك مشاكس ركبت رأسك وقلت إن التجنيد لا يهمك، هل كنت وأنت لا تدري، تريد أن تبحث عن أطلال أبيك هناك أم أنك فحسب لن تتنازل عن الشقة؟ قلت

الشقة بالنصف بينك وبين أخيك، أبوك بالنصف بينك وبين أخيك، وأخوك قال إنك يريد أن يكمل دينه، وأمك قالت لك إنك تضع العقدة في المنشار! والعم كامل قال لها: تصرفي مع عيالك وذهب إلى المقهى.

* * *

لم يتبق إلا القليل بين أبيك وحدود الوطن.

مشى مكدوداً طاوي الجناح، مثل سفينة تقاوم الغرق في رمل الصحراء، والشمس تبحلق بعين واحدة في هذا الكائن الخرافي الذي يسير كل يوم، والأحذية الطويلة تتساقط، ترن على صلابة الصخر: ترن... ترن... ترن... وأبوك يجرجر قدمه خطوة أخيرة دون أن يبالي.

* * *

في نهاية الحارة اندفع الصراخ حولك أنت وأخيك، تجمع العواجيز والأطفال على أرصفة البيوت وفي النوافذ. كانت اللمة في الشارع ولا أحد يرى شيئًا وإحدى الجارات أسرعت حافية القدمين وهي تترحم على أبيك إن كان مات، تجري باتجاه المقهى مع أمك التي تزعق وتنادي على أحد أولاد الحلال كي ينادي على العم كامل حالاً.

* * *

أبوك العنيد الصامت يسقط على وجهه؛ ثم يقف كي يتنفس بصعوبة، يسير ويتراجع، كان يلتقط فردة حذاء سقطت من يده، وبمجرد أن التقطها وقف يرتاح، يفتح عينيه ويغمضهما. يهز رأسه ببطء مثل جمل عجوز تخلى عنه صاحبه.

الرحلة البيضاء

في الخامسة مساءً انتظرت بنعامتين بيضاوين أمام قهوة المعلم سعد الأبيض كما قال لي. أرتدي الثياب البيضاء وأمشي مشية ذكر البط البكيني الأبيض، أردد بيني وبين نفسي:

ـ تأخر!

رغم أن مواعيده مضبوطة، ربما حدث شيء، ربما كان يراوغ أعين العسس البيضاء المبثوثة في كل مكان! أتجول على رصيف القهوة وأتحاشى نظرات بعض العابرين، وفجأة رأيته يندفع بين ريش النعامتين؛ ثم يعتلي إحداهما وهو يشد عصابة بيضاء حول رأسه ويبصق وينادني:

ـ هيا... هيا...

وبضربة مهماز انطلقنا معًا، وقبل أن يلفنا المغرب الرمادي كنا قد تجاوزنا آخر بيت من بيوت البلد. تواجهنا الآن صحاري حقيقية، رمال بيضاء مسكوبة تتماوج في جميع الجهات، تسد الأفق

أينما نظرنا، نستريح تحت أشجار قليلة تصادفنا أو في ظل جبل يلفحنا بصهده الناري؛ ثم نندفع من جديد، كنا أكثر عناداً من الصحراء العنيدة، النعامتان تسرعان معًا، تبطئان معًا، ويرتفع رأساهما كأنهما تتناجيان سرًا، اندفعت ألوي عنق نعامتي في أول طريق، وكان هو يلاحقني بنعامته وينادي:

ـ اصبر

ثم أفاجأ به يركض ويسبقني.

كنا في الصباح الباكر والتلال المسرعة تغزو أعيننا ثم تختفي، تلال رملية في لون الحليب، ورات الرمل المسنونة تندفع في وجهينا.. فجأة تفرمل إحدى النعامتين فتقلدها الأخرى، كي تلتقم حصوة أو قطع صفيح أو عود حشيش نبت شيطانيًا في الصحراء. سرنا طوال النهار وكاد الزاد أن ينفد بعد مسير ثلاثة أيام بلياليها، لا نرى أحدًا ولا أحد يرانا، أين الناس وأنفاس الحياة؟ تمنيت أن أرى وهج لمبة صغيرة تنبض في البعيد تدل أن بشرًا هناك. مع غروب اليوم السابع وصلنا إلى مدينة صغيرة أغلقت العناكب مدخلها، وتناثرت بها أضواء خافتة مرتعشة. يغلفها ليل كرتوني تملؤه علب أسفلتية مستطيلة، مربعات خرسانية شاهقة مطلية بالجير، بجوارها أكواخ كثيرة معدة من بقايا شجر وأكياس بلا لون، تمتد على جانبي قضبان السكة الحديد، تارة تبدو لي كأنها مدينة تحت الإنشاء وتارة تبدو كأنها مهجورة من مائة عام، كئيبة ومنسية. وأسراب لغربان بيضاء فوقنا تقطع السماء الباهتة طولاً وعرضًا:

غاق... غاق... غاق... انحنينا نتوجس شرًا مبهمًا، أرجل النعامتين تتقافز خافتة منتظمة لا تثير صوتًا ولا غبارًا، وكلما أوغلنا في ضبابها الليلي نحس كأن صوتًا مجهولاً يسخر منا. إحساس بالخفة والتلاشي والعدم.

كان صامتًا في تفكير عميق مستسلمًا لحركة التأرجح فوق ظهر نعامته كلما قلت له شيئًا لا أسمع سوى صدى صوتي يتكرر، وكان صدى الصوت عميقًا كئيبًا؛ فضربت كفًا بكفٍ، وتبادلت معه نظرة حائرة مستفهمة.

تبدو المدينة مسحورة وصوتي مثل صوصوة كتكوت وسط رائحة عفن لبيض فاسد مقذوف بعيدًا في الأركان المهشمة. لقد نقرت في نفسي فراغًا عميقًا. أرعشت نبات الأعماق الذابل في داخلي. تزايدت الغربان أعلى الأفق بشكل كثيف. تتصايح بأصواتها الغليظة: غاق... غاق... غاق... غاق... كدت أختنق من أصواتها الرتيبة الخشنة.. غاق... غاق... أصوات غليظة قاسية تتضخم بصورة متوحشة. طأطأت رأسي حتى دفنتها في ريش النعامة المنكمشة خوفًا وهلعًا.

وفي الطريق قابلنا على الجانبين نساء متشحات بالبياض يرفعن رايات بيضاء في أيديهن ويلوحن لنا:

ـ من هؤلاء النسوة؟

ـ زوجات المحاربين الشجعان.

ـ وأين رجال المدينة؟

فقال بلا مبالاة:

ـ يحاربون.

كانت طرقات المدينة خالية عدا النساء اللاتي يسرن مبرقعات والرايات البيضاء مرفوعة أعلى رءوسهن ويصحن، يهتفن باسم شخص لا نعرفه. هل يهتفن معه أم ضده؟ لا أدري ولم أجرؤ على السؤال! أوهمت نفسي أنهن لا بد أن يهتفن له لكن بلغة لا أعرفها.

استدرنا بعيدًا عنهن بمحاذاة شريط القطار والحشائش وعيدان الغاب الرومي النامية بكثافة، هناك بهائم سائمة في المرعى البري، وصادفنا عددًا من الرجال يفترشون أسفل شجرة الصفصاف، يلعبون النرد ويدخنون النرجيلة، كانوا يحزمون خصورهم بأحزمة القش المفتولة والطواقي انحسرت عن رءوسهم الصلعاء، يتبادلون مبسم النرجيلة بلذة صوفية، ودون أن أسأله قال:

ـ هؤلاء رجال ما بعد الحرب

أيضًا وقفوا يلوحون لنا، أو ضدنا، اللغة كانت خشنة وصاخبة لكن غير مفهومة، بقيت معلقة في أذني إلى أن تجاوزناهم ووصلنا إلى حافة البحر الملآن. كان البحر يلقي الزبد الأبيض عكرًا صاخبًا في كل اتجاه.

بدأت النعامتان تطيران بنا فوق سطح البحر الهائج مع هبوط الليل، لا تلمسان المياه إلا خفيفًا خفيفًا، وضوء النجوم أزهى فوق

السطح المترامي الصاخب، وإذ نسمع أحد الحيتان وهو يفقم في المياه ترتعد قلوبنا في صدورنا؛ ثم يقذفنا إلى الوراء ما ينثره الحوت من موج ورذاذ. أمسك كل منا بيد الآخر ثم قفزنا من فوق إحدى الموجات العاتية، وفجأة رأينا في وسط البحر نارًا موقدة وضوءًا شحيحًا يسلط بالتناوب على وجهينا؛ ثم صاح رجل ما:

ـ من هناك؟

أمهلنا الخطى واقتربنا، رأينا نتوءًا صغيرًا ليابسة تحاصرها المياه من جميع الجهات، وخمسة رجال يجلسون حول «نصبة» شاي يستدفئون بنارها، وكانوا في ملابس الإحرام ربما للتمويه، انتصبوا واقفين وصوبوا نحونا بنادق عتيقة بماسورتين بمجرد أن رأوا بياض النعامتين. كانوا يحمون أسن واحد إذ تقدم نحونا ببطارية ضوء صغيرة:

ـ إلى أين الرجلان؟

لم أدر بماذا أجيبه لكن انبسط شيء مقبض بداخلي بفعل ملامح الشيب الوقور. أخرج كل منا جواز سفره وأعطيناه للعجوز؛ فتفحص الأوراق بصعوبة في الضوء الشحيح؛ ثم اقترب مني ـ لا أدري لماذا أنا بالذات؟! ـ وطبطب على ركبتي وقال:

ـ بحق الأخوة، أين يذهب الرجلان؟!

قبل أن أنطق بشيء فوجئت بأحد الرجال الآخرين يدنو ويصوب ماسورة البندقية حتى تنغرس في صدري، وقد رفع حاجبيه بقسوة:

ـ هذان هاربان يا سيدي!

ثم ألقى جواز سفري على الأرض.

دق قلبي بعنف، وتقدم آخر من فوره وأمسك النعامتين؛ ثم أخرج ثالث من جيب البالطو عديم اللون ورقة بالية، وقرب له العجوز الضوء؛ فقرأ:

ـ لدينا أوامر يا سيدي بالقبض على هاربين بنعامتين.

ثم انطلقت رصاصة تهديد تشق سقف العتمة، تزف للدنيا فرحة القبض على هاربين يركبان نعامتين. أنزلونا عن النعامتين، وجردونا من ملابسنا تمامًا، وقيدونا بحماس بالحبال الغليظة؛ فقلت:

ـ وقعنا في أيدي عسس البحر!

رد في اطمئنان:

ـ لا تحزن يا صديقي.

كنا نعافر في القيد، والعسس حولنا لا يبالون، أحدهم أطفأ نار الموقد والآخر لملم البطاطين والأواني والطعام، وقال لقائدهم العجوز:

ـ انتهت الآن المهمة يا سيدي.

ثم ركبوا النعامتين وانطلقوا دوننا في عرض البحر المترامي.

جر الخيط

سحب طرف الخيط بالسبابة والإبهام كأنه يلتقط شعرة زوجته من طبق الأرز. كان جالسًا على طرف السرير، ويفتح رجليه نصف العاريتين بطريقة غير مهذبة. من بين أربعة مصابيح موزعة في سقف الغرفة لم يعد سوى مصباح وحيد يضيء. المصباح يُلقي ظلاً على وجهه فيقسمه نصفين. باب الحمام الخاص بغرفة النوم كان مواربًا؛ فلمح من بعيد الماء ينساب على ظهر زوجته ومؤخرتها الكبيرة. كان الماء يتدفق من أعلى بقوة، يحدث «وشيشًا» يؤكد حالة الصمت.

الساعة الآن تجاوزت منتصف الليل وزوجته عادت من الخارج منذ قليل، لا بد أنها توقعت أن يسألها ويلومها: لماذا تأخرت؟ نبهتك عشرين ألف مرة آخر موعد لرجوعك الحادية عشرة، لا يريد أن يأكل الجيران وجهه بنظراتهم الخبيثة.

كان صامتًا لم يقل أي شيء.

منحه جرُّ الخيط بإصبعيه شعورًا بالمتعة والهدوء الروحي. حتى خطوط الماء وهي تلمع على جسد زوجته لم تعد تثيره كما يحدث

عادة. لا يتذكر منذ متى بدأ هواية جر الخيط، بمجرد أن يرى طرفه نافرًا، وحيدًا، بعيدًا، عن نسيجه، تتحرك يده لا شعوريًا، يسحبه من رأسه ويجره، ينز في يده، يكر، يكر، إلى ما لا نهاية.

مع إنه توقع أن ينقطع منه في أية لحظة، أو على الأقل يتوقف عند الجذر.. عند العقدة الأولى، لا بد أن هناك غرزة محكمة ستوقف جريان الخيط بين يديه بهذه السهولة. خيوط شرشف السرير تبدو فرحة، وكأنه حررها من الأسر، تحل بعضها بعضًا بسرعة غريبة، وتتجمع كلها في خيط وحيد لا أول له ولا آخر، ينز بين السبابة والإبهام إلى ما لا نهاية، لو استمر سيتلاشى الشرشف كله ويصبح مجرد خيط أحمر بطول العمارة أو السكة الحديد التي يعمل مهندسًا بها.. بطول عمره.. نعم.. بطول عمره الذي لا يعبأ بما مضى منه ولا ما تبقى.

تضايق حين سمعها تضحك فجأة كعاهرة وتسأله بدلالٍ:

ـ مؤخرتي حلوة؟

صحيح أنه غاضب منها؛ لكنه شعر بالإثارة من سؤالها وضحكتها العابثة. احتفظ بمسافة باردة، وقال من دون أن يتطلع إليها:

ـ حلوة.

افتعلت أنها غاضبة وقالت:

ـ المفروض إنك تقول: حلوة جدًا.

هز رأسه وتنهد بعمق، كان يدرك من ظلها الذي يمر بالباب أنها تقترب منه؛ فرد غير مبالٍ:

ـ حلوة جدًا.

ـ سمعت إن في إسفنج يكبر المؤخرات.

منذ أسبوع حدثته أنها ترغب في تكبير صدرها، والآن إسفنج! لا يفهم سر هذا الهوس المفاجئ بتكبير استداراتها. حذرها من مخاطر عمليات التجميل، وحدثها عن الممثلة التي ماتت أثناء عملية تجميل.

سحبت نفسًا عميقًا وأطلقت زفيرًا عنيفًا من فمها:

ـ أيام الخطوبة قلت لي إنك تحب «ستايل» ليلى علوي!

انحنت عليه وقبلته في جبينه؛ فأمطر شعرها رذاذ الماء العالق بأطرافه، أحس برائحة الصابون تغمر صدره وتثيره لكنه قاوم أن تخرج منه أية إشارة تدل على الرغبة. تلهى بسحب الخيط المنساب في لذة.

ـ آسفة يا حبيبي، العملاء أخروني في الشغل.

جرجر كمية كبيرة من الخيوط تراكمت بين رجليه. أي شخص سيلحظها على الفور لكن زوجته لم تعلق، ربما رأتها ولا تريد تعكير مزاجها بالجدل المعتاد قبل النوم. جلست على سريرها الخاص قبالته، وانشغلت بتجفيف شعرها بمنشفة وردية. ظل في مكانه وإن انحنى رأسه قليلاً كأنه يوشك على النوم جالسًا.

أليست هذه الشقة كبيرة جدًا على زوجين لا ينجبان أطفالاً، ويعيشان لمجرد تسديد عشرات الفواتير شهريًا؟ لماذا يستمران في الحياة معًا برغم المشكلات الكثيرة؟! كل يوم تتأخر لأن العميل كان

ثقيل الظل أو مدير الشركة فاتحها في مشروع جديد ستنال من أرباحه نسبة، وقبل أسبوعين حذرها لأن الكوافيرة التي تتعامل معها على الناصية سمعتها بطالة؛ فردت عليه إنها أحسن واحدة تعمل «بوستيج».

كل يوم تصحو وتزعق وتصرخ لأنه أحال الشقة إلى أكوام من خيوط رفيعة ملونة، تتعثر فيها في الصالون والردهة وحتى في غرفة النوم. المشكلة أنه لا يدمر إلا الشراشف والستائر العزيزة على قلبها. توقع أن تسأله وجهًا لوجه: لماذا أنت حاقد على الأشياء التي أحبها؟ ليرد السؤال بسؤال: لماذا أنتِ لا تسمعين كلامي وتعاندين على الفارغة والملآنة؟!

اعتاد أن ينتظر عودتها من الخارج حتى ساعة متأخرة من الليل، يستسلم صدره لوخزات ورغبات متناقضة، صحيح أنها دائمًا تتصل به على الموبايل، وتخبره أنها في المكان الفلاني وستعود في الموعد المحدد؛ لكن من يضمن أنها فعلاً في هذا المكان؟ وماذا تفعل؟ لماذا لا يجرؤ على مراقبتها والخروج وراءها؟ هل لأنها تدفع أكثر في مصاريف البيت؟ لو ناقشها وجهًا لوجه وصارحها بكل ما يدور في رأسه ستقول له أنت إنسان شكَّاك وتغير من نجاحي، تريد تحطيم سمعتي!

يعرفها حين تثور تصبح كالإعصار، وقد تهدم البيت فوق رأسه وتخرج ولا تعود أبدًا. ليس لديه أي دليل على الظنون التي تساوره.. ثقتها في نفسها عالية جدًا، ومعجبة بأنوثتها أكثر من اللازم؛ لكن

هذا لا يعني الشك في سلوكها. من الطبيعي أن أي رجل سيعجب بامرأة مهتمة بأنوثتها وفي الوقت نفسه ناجحة وواثقة من قدراتها.

في أحد الأيام قالت له إن العميل سلم عليها وضغط بأصابعه القصيرة على يدها بطريقة غير لائقة. لو كانت إنسانة متساهلة مع الآخرين لما روت له هذه الواقعة، ربما أرادت أن تثير غيرته وتشعره أنها مرغوبة خصوصًا أن أسابيع تمر دون أن يضمهما سرير واحد كرجل وامرأة.

لماذا تحكي له هذه التفاصيل البسيطة، التفاصيل اللعينة، لتشعل نارًا في صدره؟!

مع تكة مفتاحها في باب الشقة كان قد انتهى من تفكيك مفرش الطاولة الصغيرة في الصالون وأحاله إلى كومة هشة من الخيوط؛ ثم وضع قدميه فوق الطاولة العارية ممددًا في استرخاء وهو يتابع فيلم «الخيط الرفيع». سأل نفسه: لماذا لم أشاهده كاملاً أبدًا؟ أفلام كثيرة لا يشاهدها كاملة، أو يسرح أثناء متابعتها وينسى ما حدث فيها، ولو سأله أحد: هل فاتن حمامة كانت خائنة في الفيلم أم لا؟ لن يعطي إجابة صحيحة.

تنهد بعمق حين رآها تبتسم له من بعيد، بمزاج رائق وتغمز له بعينها اليمنى. يحب شقاوتها المباغتة. نصف وجهه بدا مسودًا ويشيح عنها. دعته إلى عشاء فاخر، كان ملفوفًا بين يديها. غمرت رائحة الكباب زوايا الشقة.

تكره صمته الطويل أثناء تناول الطعام، لا تعرف لماذا يهز رأسه فجأة بعصبية ويكز على أسنانه؛ فيما يفكر غاضبًا؟ أليس الأفضل لو مد يده إلى فمها بقطعة كباب مداعبًا؟! لو فعل هذا لن تمانع في لعق أصابعه الملوثة بالدهن.

يأكلان صامتين كأنهما يتحفزان لمعركة مقبلة، انشغل عنها بمطالعة عناوين الصحيفة. بقع الكباب الكثيرة لا تجعل «المانشيتات» واضحة؛ لكنه على أية حال لم يعلق سوى على «مانشيت» واحد يزعم أن كتلة الإخوان ال ٨٨ في مجلس الشعب تحذر الحكومة من غلاء الأسعار. هي تهكمت لأن الإخوان دائمًا يحذرون الحكومة ومع ذلك لا يحدث شيء، والدليل أن سعر البيضة الآن تسعون قرشًا. قال:

ـ العيب في حكومة اللصوص وليس في الإخوان.

أخبرته متهكمة أن الإخوان كل همهم حبس المرأة في البيت؛ لكنهم بكل قوتهم لا يستطيعون منع ارتفاع سعر بيضة واحدة!

لماذا تتهكم عليه وتسفه كلامه كلما تحدث في السياسة؟ لماذا يصر أنه يفهم في كل شيء ويريد منها أن تنصت ولا تتكلم؟ كل همها أن تسرح المرأة في الشارع ويعجب بها كل من يلقاها، هو مأزوم من الحكومة منذ أن تخطته الترقية، زميله قال له يومًا: إذا أردت أن تسير امرأتك مثل القطار ولا تحيد عن السكة الحديد ضع لها رقيبًا في كل محطة يعد عليها الأنفاس، قالت في نفسها: مهما كنت واضحة معه، لا يقدر أي شيء، لن يثق بي أبدًا، ولن يعرف ما أفعله من أجله!

وقفت فجأة وقالت بعصبية:

ـ أنا شبعت.

كل شيء اختلف، تغير إلى الأسوأ بمرور الزمن، جدار من الصمت الكئيب يعلو ويعلو بينهما. محاولة الاقتراب تزيد الأمور تعقيداً، وتؤكد كل يوم على فشل العلاقة.

ـ وأنا شبعت.

كانا واقفين متحفزين مثل ديكين في حلبة مصارعة، متوترين، مشدودين، يفصل بينهما نصف متر فقط؛ لكن جبلاً من الكراهية والغضب والعناد انتصب فجأة بينهما. من دون أن ينتبه انتفض جسده مرات ودفع بيده بكل العنف مائدة الطعام؛ فانتثرت أصابع الكباب المتبقية في أرجاء الصالة.

شهقت، حدقت، أطبقت شفتيها في آخر لحظة قبل أن تبصق في وجهه؛ ثم كان الصمت.

التلفزيون مغلق، لا موسيقى، لا دخان ولا روائح في المطبخ، حتى اللمبات التي احترقت لم يفكر أحد في تبديلها، كل يوم يعود في التاسعة مساءً ويجلس مع الخيط يجره إلى ما لا نهاية، بوتيرة أسرع وبعصبية تفقده متعته القديمة. كانت ملتزمة تماماً بالعودة في الحادية عشرة وحين يمر عطرها أمامه يعاود هز رأسه إلى أسفل بعصبية، ويكز على أسنانه حتى تصدر صريراً لا يسمعه أحد سواه.

لاحظ أن مؤخرتها ازدادت امتلاءً فجأة، وصدرها ارتفع إلى أعلى، وأطالت شعرها بخصلات متموجة بعد أن صبغته كله باللون الأصفر الذهبي. ما إن تعود إلى الشقة حتى تتجول بملابسها الداخلية، وتلملم المفروشات والأغطية والستائر المعلقة وتضعها أكوامًا أمامه في الصالة كي يمارس هوايته المفضلة.

تراقبه من بعيد ويدها في خصرها، بينما ينشغل بطرف عينه برؤية النصف المسود من وجهه. لم يخبرها أنه سمع شائعة منتشرة هذه الأيام في الشركة عن رجل أعمال من الإخوان عرض عليها أن يتزوجها عرفيًا إذا تطلقت، ويعينها مديرة قسم العلاقات العامة في شركاته كلها. وهي لم تخبره أنها عرفت منذ يومين بأنهم نقلوه إلى محطة قطارات بعيدة لعدم الكفاءة.

كانا صامتين، محايدين أو متبلدين، أطفأتْ المصباح الوحيد المتبقي في الصالة، ونزعت عن جسدها آخر قطعة ملابس ثم وقفت أمامه، بينما انحنى تحت قدميها وأمسك طرف خيط وراح يدور به حول كعبيها المضمومين الملتصقين، يدور بالخيط حول ساقيها وركبتيها، ولأعلى يسحب الخيط بمهارة فائقة وحماس، يلفه دوائر حول جسدها، يغطي بخيوط الحرير الكثيفة مؤخرتها الممتلئة؛ ثم يسحب طرف الخيط بخفة ولذة ويصعد به نحو الخصر، يشده بقوة حتى لا يترك ثقوبًا أو فجوات ويضمه إلى بعضه البعض بكل خبرته كمهندس يدرك كيف تتساوى الخيوط، يحيكه ويحبكه من دون إبرة، ويطرزه كأنه ثوب حريري عشق

الجسد، وذاب على تضاريسه علوًا وانخفاضًا، ضغط على الثديين النافرين لكنها لم تتأوه كما توقع، لم تهتز في وقفتها برغم شل حركة اليدين والقدمين. أصابته نشوة مضاعفة وهو يشعر بالخيط ما زال وفيرًا يجر بعضه بعضًا ويصعد إلى يده سريعًا. أصابعه تلتف حول رقبتها، تنزلق، تصعد. بدت كأنها تمثال من حرير قد يسقط بين يديه في أية لحظة، انتبه فجأة حين تلاقت العيون إلى أنها غيرت لون عينيها إلى الأزرق. سوف يخيط عينيها اللعينتين بالإبرة حتى لا تغمز بهما إلى رجل آخر بعده.

شَعر غجري تتطاير منه الحجارة

زوجته تنتظره في سوق الخميس بجوار باب مطعم شرمبي. يحاول أن يتخطى سيارة فورد في الحارة المجاورة؛ لكن الإشارة الحمراء أحبطته. طلب من زوجته أن تنتظره بعد ربع ساعة بالضبط أمام البوابة رقم ٦ لأنه لن يهبط من السيارة، ولن يجد مكانًا يركنها فيه. ردت غاضبة بأنها تحمل أكياسًا ثقيلة، وستنتظر في الداخل بجوار شرمبي. أغلق كل منهما هاتفه في التوقيت نفسه دون تحية!

* * *

هذا مجرد سوء تفاهم متكرر أو خلاف بسيط بين شرمبي والبوابة رقم ٦، يحدث مثله يوميًا بين ملايين الأزواج!

* * *

من الممل أن تبدأ قصة بمثل هذا الخلاف التافه، أو أن نفيض في وصف الزوج بأنه يرتدي بدلة رمادية من دون كرافتة، ويلصق

على خده الأيسر هاتف سوني أريكسون، أسود اللون. أما سيارته فهي تويوتا كورولا لونها نبيذي. الأشهى أن نصف الزوجة، لن نقول إنها فارعة الطول ممشوقة القوام؛ فهي بكل بساطة منتقبة، وغارقة في سواد تام ولا يظهر منها سوى عينين سوداوين تطل منهما نظرة شهوانية. على الأقل من وجهة نظر الكهل الذي يراقبها الآن من وراء زجاج المطعم.

تنتعل صندلاً جلديًا خفيفًا، وكونه أسود مثل العباءة التي ترتديها ليس مصادفة، بل دليل أناقة، خصوصًا أنها تساهلت مع أصابع قدميها اللدنة، وتركتها عارية، بيضاء، مطلية بلون نبيذي غامق مثل لون سيارة زوجها. جسدها نحيل جدًا لكن إذا شاء الله للكهل الذي ما زال يراقبها أن يراها يومًا في الفراش سيكتشف أن لها ساقين طويلتين مسحوبتين بكل الإغواء والشبق، واستهلاكهما بسيط لا يتجاوز مرة في الأسبوع.

* * *

أثناء توقف الزوج مجبرًا أمام الإشارة الحمراء، انتبه إلى أن أوراقًا كثيرة تتطاير خفيفًا. دوامات من غبار. ظنها ريحًا عابرة كتلك التي تحوم حولنا فجأة مع دخول الغروب. لذلك لم ينشغل بها بل راح يتأمل المسجد الراسخ في قلب الميدان. السيارات تدور حوله من جميع الجهات طوال النهار؛ فكيف يدخل إليه المصلون؟ غريب حقًا أن رجلاً لا يصلي يشغل باله بكيفية دخول المصلين إلى المسجد!

* * *

لمح فوق القبة سربًا من الحمام غامق اللون، ما بين الرمادي «المزرق» والبني الباهت، مع ريشات قليلة بيضاء. بسبب ضخامة الحجم وكبر الرأس خمن أنه سرب من الذكور الهائجة يغطي القبة كلها. القبة كاملة الاستدارة كالحة اللون. يبرز منها شكل مخروطي صغير فوقه هلال. بدت في عينيه مثل ثدي أسطوري تنتصب حلمته؛ فتغوي ذكور الحمام. لولا مشيئة عليا بدلت لون الإشارة من الأحمر إلى الأخضر لاستطرد الزوج، وأقام في خياله حفلة جنس جماعي بين الطيور فوق القبة!

* * *

لا أعلم ـ باعتباري المؤلف ـ إن كان الزوج سيحاسب يوم القيامة على أخيلته الفاسقة أم لا! ما أعرفه يقينًا أنه يلصق هاتف «سوني أريكسون» على خده الأيسر طول النهار، ولا يتوقف طول الليل عن شرب الخمر. أي ببساطة هو سكير وزوجته منتقبة! لم يكن مُخطَطًا أن أذكر موضوع سكره، لأن هذه قصة عن الريح لا عن السكر. خصوصًا أنه موضوع سري جدًا وحساس. لا يعلم به سوى زوجته وصديقه الوحيد الذي يتقاسم معه زجاجة «الريد ليبيل» الأحمر في شرفة متوارية عن أنظار المارين في الشارع.

* * *

زوجته متأكدة أنه سكير، ولا تشك أبدًا في أنه عربيد، أي يعربد مع النساء بيضاوات وسمراوات. ليس في الشرفة المغلقة

بل في شقة سرية يستأجرها مع ثلاثة أصدقاء يعملون في مناصب حساسة، لذلك من غير اللائق أن نذكر أسماءهم في قصة عن الريح.

بغض النظر عن مكان عربدته: في شقة الأُنس أم في السيارة «الكورولا»، هي لا تشتكي أبدًا لقناعتها في النظرية القائلة: «الخائب في بلاده خائب في بلاد الناس!»

* * *

الفلبينية صديقة الزوج (لن نذكر اسمها كاملاً حتى لا يتم تسفيرها من الخليج كله بتهمة ممارسة الدعارة. رغم أنها لا تمارس الرذيلة إلا بعد انتهاء دوامها الرسمي في شركة سفريات حج وعمرة) هذه المرأة الفلبينية قصيرة القامة لديها نظرية مختلفة عن نظرية الزوجة، خلاصتها أن: «الدولارات ليست كل شيء في الحياة». هي الآن موجودة في العاصفة؛ لكنها ليست أمام مطعم «شرمبي»، ولا عند المسجد، بل في «باص» أحمر، مخصص للعمالة الوافدة برفقة أعز صديقاتها؛ وهي امرأة هندية (لا تتوافر أية معلومات عنها سوى إن اسمها لاشمي)

* * *

كانت الصديقتان تتقاسمان مقعدًا لفردين داخل الباص، وتنظران من النافذة إلى فندق «الشيراتون» المطل على الميدان الكبير. هيئة الفلبينية وهي جالسة ليست أكثر من بطة سمينة

منتوفة الريش. بالمصادفة كانت تشرح نظريتها لصديقتها وتقول: «الدولارات ليست كل شيء، هو معه فلوس لكنه مثل الخرتيت، نعم يدفع الفلوس مقدمًا؛ لكنه خرتيت"! عندما شَغَل أحد الصديقين الشقة السرية ليلة الجمعة، ضاجعها في السيارة في الصحراء وكتم على أنفاسها خمس ساعات بفضل الفياجرا، «تخيلي وضع «الريد ليبل» في علب «كولا» للتمويه على الشرطة»؛ ثم ضحكتْ لأن الشرطة أصلاً لم تصادفهما في الطريق أثناء شرب «الريد ليبل» ولا في الصحراء أثناء المضاجعة.

* * *

أضاءت الإشارة خضراء حيث يقف الزوج، وهبت الريح أكثر عنفًا. تجاوزت أسفل السيارات لتشوش الرؤية قليلاً على السائقين. قفزت أمام عينيه أشياء كثيرة كانت منسية في جوف الأرض وعلى الأرصفة وخلف الأشجار. علب كولا، زجاجات مياه فارغة، كراتين بُنية كبيرة الحجم، بقايا أشياء غريبة، أكياس بلاستيك فارغة تهوم كأنها قناديل بحر سابحة في الفضاء، جرائد كاملة كانت ملقاة هنا أو هناك فجأة طارت كأنما نبت لها جناحان قويان.

* * *

ليس هذا غبارًا رمليًا فقط بل أشياء كثيرة تتطاير. تسقط على زجاج السيارة الأمامي، قد يكون من بينها علبتا الكولا التي وضعا فيهما «الريد ليبل» للتمويه على الشرطة، عندما كان مع «المُزَّة» الفلبينية، كما يسميها.

الفلبينيات ماكرات، عنيدات، ولسبب غامض لم تقبل أن يضاجعها مرة أخرى. هذا السبب الغامض بالنسبة إلى الزوج، كشفته لنا الفلبينية منذ لحظات؛ فهو ليس أكثر من «خرتيت» معه فلوس!

* * *

أما زوجته فتقبل أن يضاجعها وهو سكير مع أنها لا تحب رائحة «الريد ليبل»، وتصر أن يولج فيها بشكل طبيعي دون الاعتماد على الحبة الزرقاء! ربما تنتقم منه وتفرح فيه سرًا لأنه من غير الحبة السحرية يسقط منهوكًا ولا يصل معها إلى الذروة. بل يقع مثل أرنب ويتركها تصعد إلى السماء السابعة بجهودها الذاتية.

* * *

الزوج إذن «أرنب» في نظر الزوجة و«خرتيت» في نظر العشيقة. هذا التكوين الحيواني يجعله يرهف السمع إلى ارتطام حجارة صغيرة تقرع هيكل السيارة الخارجي. نقرات قوية تحدث رنينًا إيقاعيًا منتظمًا. لذلك أعاد لا شعوريًا إغلاق نوافذ السيارة، رغم أنها كانت مغلقة.

* * *

كان الراديو مرتفعًا على أغنية «بيونسي نوليس» في محطة «سوا» الأمريكية. تلك المطربة السمراء كم هي مغوية! تخيلها عارية وشعرها الخشن يتطاير في الريح وسط الأشياء الهائجة، والحجارة ترجم فتنتها من كل جهة. دائمًا كان يخلط بينها وبين الفاتنة السمراء «تيرا بانكس».

للأسف لا نعرف ماذا سيكون شعور بيونسي إذا علمت أن مواطنًا عربيًا يركب سيارة كورولا لونها نبيذي في أحد شوارع الخليج، ويسرح بخياله في تفاصيل جسدها الفاتن المنحوت من شيكولاتة إيطالية معتقة بنبيذ الشهوة!

تُرى ماذا ستقول عنه بيونسي إذا كان في نظر زوجته أرنبًا وفي نظر عشيقته خرتيتًا؟!

* * *

خفض صوت الراديو وهو يتجاوز إشارة أخرى صاعدًا إلى طريق «المغرب السريع». زوابع، عواصف متلاحقة، قطعت عليه حبل التفكير في سمرة بيونسي وتيرا وامتلائهما الشهواني الذي يتحدى فحولة أشد الرجال.

* * *

في أقل من ثانية كانت السماء تنفجر تحت ضغط ما. رعد وبرق. الأرض تتفكك مفاصلها، تترنح، ترتج. قطع كبيرة من الثلج ترتطم ارتطامًا بالسيارة من كل جانب، كأن لها سنونًا ستخترق الزجاج، وتضرب رأسه المثقل بالشهوة والأفكار الشريرة.

كان المطر صاخبًا هادرًا. الريح تأرجح السيارة. ستقتلعها من فوق الإسفلت وتلقيها على الرصيف. الماسحتان الأماميتان لا تكفيان لدفع المياه الغزيرة من أمام عينيه.

لا شيء سوى المطر. مطر رمادي ثلجي عنيف كثيف، تلتمع وسطه «فلاشرات» برتقالية لعشرات السيارات المتباطئة. الحركة على الطريق ثقيلة جدًا.

* * *

تحت أقرب جسر، ركن قليلاً، على ممر الطوارئ، حتى تتحسن الرؤية لمسافة متر واحد. أدار الراديو على إذاعة القرآن الكريم؛ فليس هذا وقت بيونسي وبانكس ولا كل العاهرات الآسيويات!

* * *

غضب مفاجئ للطبيعة. الطقس الحار المعتاد ذاب في ثوانٍ. ها هو المطر يتدفق مدويًا بسرعة رهيبة. أشجار الفيكس المغبرة على الجانبين تهتز عنيفًا كأنها في حفلة زار لطرد جني يتلبسها. الأشجار الخضراء الرومانسية مسها جنون، ترتجف بعنف.

* * *

أثناء صعوده الكوبري بطيئًا محاذرًا باتجاه الطريق الدائري الرابع لمح نصف شجرة كافور عملاقة، كان رأسها مقطوعًا يتدلى منها ليغلق نصف المَخْرج. تصور أنها تتألم حين دهس أطرافها بسيارته مسرعًا، وقد سيطر عليه وهم غامض أن الشجرة الأخرى المجاورة لها ستسقط فوق سيارته وتحطم رأسه. على بعد أمتار قليلة سقطت فجأة شجرة عتيقة في ارتطامة مباغتة قاتلة. تنفست الموت برعشته الأخيرة قبل أن تستسلم أغصانها وأوراقها الشاحبة للماء العكر الغزير.

لحسن حظه لم تسقط على السيارة؛ فتشل حركتها وتبقيه حبيسًا وراء عجلة القيادة. كان الدوران إلى الجهة الأخرى من الطريق مغلقًا بجثث الأشجار.

* * *

في هذه اللحظة اندفعت زوجته إلى داخل مطعم شرمبي؛ وهي تصرخ وتلطم خديها بين طاولات الزبائن لأن العاصفة خطفت منها حقيبة يدها بالفلوس وبطاقات الائتمان. الرجل الكهل الذي راقبها بما يكفي، اقترب وطبطب على كتفها بطريقة مريبة متظاهرًا بأنه يواسيها؛ وهي قبلت مواساته بنظرة قطة مستسلمة.

* * *

الشجر كما النساء؛ فلكل شجرة طريقتها الخاصة في استقبال العواصف الماطرة؛ فهذه استلقت ورفعت جذعها المنتزع من الأرض لأعلى، وأخرى مالت قليلاً ولامست بأوراقها سيارات العابرين دون أن تسقط. لا تعرف فرحة السقوط والتحرر من كل أنواع التشبث، بل تنحني للعاصفة كما يقولون. الثالثة ظلت في وقفة مصطنعة كأنها مصابة بشلل الأطفال، ورابعة تبدو كامرأة منكوشة الشعر، وخامسة وجدتها فرصة لتتعرى وتلفت الانتباه إلى وجودها، ببساطة تظهر كل شجرة على حقيقتها في العاصفة!

* * *

«يجب الاستعانة برقم شرطة الطوارئ. حتمًا هناك كثيرون يتصلون الآن على الرقم نفسه وسيكون مشغولاً إلى الأبد» هذه الفكرة راودت الزوج والزوجة في اللحظة نفسها.

أجمل ما في الزواج أن يحدث بين الزوجين توارد أفكار سواء أكانت طيبة أم شريرة. إنه يشبه الوشوشة السرية بين الريح والشجر، تارة تكون هامسة وتارة أخرى تكون عنيفة ومجنونة.

* * *

خمسة شباب لا علاقة لهم بالقصة التي أكتبها الآن؛ لكن لهم علاقة بالريح، هبطوا من سيارة جيب تويوتا. شمروا عن سواعدهم وبدأوا في لملمة أغصان شجرة تبعرث. هل يردونها إلى الحياة أم يعيدون الجزء الذي احتلته من الطريق كما كان من قبل؟! خلفهم ظهر سرب من العمال البنغاليين قفزوا إلى الرصيف دفعة واحدة. عيونهم مذعورة ويضعون على أفواههم كمامات قطنية بيضاء. يشبهون في نحولهم وسمرتهم سربًا آخر من العمال البنغاليين كانوا يهرولون أمام مطعم شرمبي، وكانت الزوجة تشغل نفسها بتفحصهم من أسفل إلى أعلى، حتى تخفف توترها. ما زالت جالسة وراء الزجاج والكهل يواسيها بيده؛ فإن لم يستطع، فبلسانه!

* * *

كل من ظهروا في تلك الساعة الرهيبة كانوا رجالاً بائسين حيارى، سقطوا في فخ الطبيعة الغادرة. الطبيعة اللعينة ستطوى

شيئًا فشيئًا؛ فخذيها وذراعيها وتعتصرهم بقسوة حتى الموت. لقد اندفعت أخيرًا بمجونها وأطلقت شهوة العنف.

* * *

اللوحات الإعلانية بألوانها السخفية التي وضعت للانتخابات، المقررة بعد شهر، تتمايل، تحدث صريرًا مكتومًا أو دويًا خشنًا؛ وهي تتخلع من أماكنها المرتفعة وتتطاير وسط العاصفة بوجوه المرشحين الضخمة الهزلية.

* * *

عشرات الأطباق اللاقطة طارت من فوق سطوح البيوت، كأنها نبات عش الغراب اقتلعته الريح. طارت بكل ما فيها من أغان وأفلام ومسلسلات وأخبار كاذبة وقنوات دينية ومحطات بورنو مشفرة. مزرعة كبيرة من الأطباق التائهة تناثرت في غير أماكنها تلتقط العنف وهذيان الطقس وحفلة التعري التي تقيمها الطبيعة لنفسها.

* * *

النخيل وحده كان مختلفًا؛ فهذه نخلة قصيرة الجذع ظلت باسقة وجريدها يهتز ويتراقص كأنه يضحك من اللقطات الكاريكاتيرية للطبيعة. هناك صف طويل من النخلات تهدل جريدها مع أنين غامض كأنهن نائحات في تراجيديا إغريقية؛ لكن حتى هذه اللحظة لا نستطيع أن نحدد طبيعة العرض فعلاً: هل هو كوميدي أم تراجيدي؟

بالنسبة إلى الزوجة العرض «تراجيدي» جدًا؛ فهي خسرت فلوسها وبطاقاتها الائتمانية، وقد تخسر زوجها أيضًا. لذلك اتصلت به لآخر مرة وطلبت منه ألا يتوقف عن ترديد الشهادتين.

لم تقل له إنها تحبه، ولا إنها ستظل تحبه إلى الأبد بل أمرته بحسم أن يركن في أي مكان آمن حتى تهدأ العاصفة، ويتلو آية الكرسي. حتمًا ستفرق معه إذا مات وهو يتلو آية الكرسي عما إذا مات وهو يعقد في خياله مقارنة بين السمرة الشهوانية الدافئة لبيونسي نوليس وتيرا بانكس.

* * *

طفلتهما الوحيدة موجودة في شقة في الدور السابع في حي راق، في حراسة عجوز هندية، الخادمة العجوز اتصلت عليهما تباعًا وأخبرتْ «الماما» و «البابا» أن البيت يهتز.

مرة أخرى يحدث توارد أفكار غريبة؛ فالزوج والزوجة أمرا الخادمة بألا تهبط إلى الشارع وتغلق باب الشقة والنوافذ بإحكام من الداخل ولا تفتح الباب لأحد. لم يكن هناك أي اختلاف جوهري في كلامهما باستثناء أن الزوجة طمأنتها، وقالت إنها ستعود إلى البيت بعد ربع ساعة.

* * *

على الأقل صوت الزوج ما زال متماسكًا داخل حلقه، وهو يعطي الأوامر للخادمة الهندية. لم يرتعش مثل غيره من الأصوات الخائفة

التي تشغل الهواتف الآن وتتطمئن على ما يحدث هنا وهناك: هل غضب الرب؟ غدًا سيقول شيوخ الفضائيات إن العواصف والزلازل والبراكين من جنود الله يعاقب بها البشر على فسقهم وظلمهم.

حفل التعري المجنون! يوم الغضب! الأشياء المنسية في أماكن مهمشة، أعلنت غضبها على ناس المدينة. الأرض، السماء، الشجر، الأطباق اللاقطة، الجرائد، رمل الصحراء، الإسفلت، الجرائد، العلب الفارغة. كل ما نتصوره تافهًا، كل ما تجاهلنا يومًا وجوده، انتفض الآن ضدنا وقفز منتشيًا في أعيننا.

* * *

الجو مال فجأة إلى الإصفرار والشحوب بعد أن توقف المطر الغزير. رائحة التراب تكتم أنفاسه، تخنقه، والهاتف النقال فقد القدرة على الإرسال والاستقبال. بكل بساطة انفصل الزوج عن العالم. أصبح سجينًا لا يعرف ماذا يفعل بيده ورجله وليس معه هاتف يضعه في أجواء الحياة؟! هاتف سوني أريكسون الميت بين يديه ليس أكثر من فردة حذاء!

هذا تعبير مجازي مثل تعبيرات كثيرة طالما رددها على خشبة المسرح؛ وهو يؤدي دورًا عبثيًا لصمويل بيكيت أو سارتر. هو ليس ممثلاً بالمعنى الدقيق؛ بل مجرد كومبارس يظهر في مشهدين على الأكثر وزوجته اشترطت عليه أن يعتزل ويبحث عن مهنة شريفة عليها القيمة؛ فعمل مندوب مبيعات في شركة كبرى.. وهو اشترط عليها أن ترتدي النقاب ولا تعمل في أية مهنة.

يمكن أن نقول بكل اطمئنان، إن كل طرف اجتهد ـ طوال الوقت ـ في تنفيذ شروط الآخر. ورغم بساطة الشرطين الأساسيين كإثبات لحسن النوايا؛ لكنهما حددا شخصية الزوجين؛ فهي أصبحت «مُنظرة» بارعة لفوائد الحجاب وهو «مُنظر» كبير في مسرح العبث، طبعًا بعد شرب ما يكفي من الريد ليبل.

* * *

كل التائهين الغاضبين على الطرق الدائرية في تلك اللحظات العصيبة، استغربوا من تداخل بث الإذاعات قبل أن تتوحد الموجات كلها في بث آيات القرآن دون انقطاع. لا بد أن شخصية كبيرة جدًا ماتت بسبب العاصفة؛ فتم إعلان الحداد؛ لكن العاصفة لم تبدأ سوى من ساعة تقريبًا، وموت الشخصيات المهمة والإعلان عنه والحداد وبث الآيات، كلها تفاصيل وترتيبات تستغرق ساعات طويلة وربما أيامًا.

«ماذا يجري بالضبط! مَن الشخص المهم الذي مات في هذا الظرف الغريب؟ كل جنازة تحتاج إلى موت والموت يحتاج إلى القرآن كي نتقبله نفسيًا. لكن من الذي مات الآن؟! لماذا توقف هاتفي اللعين عن الرنين؟ لا أعرف أين أنا الآن، كيف جئت إلى هنا؟! حتى لو شربت بحرًا من الريد ليبل مع كل عاهرات آسيا لن أفهم ما يحدث بالضبط!» هذا ما كان يدور في رأسه بالضبط تحت تأثير ما يحفظه من جمل عبثية خالدة.

* * *

الزوجة ـ في تلك اللحظة ـ لا يدور في رأسها شيء محدد، جلست على طاولة صغيرة في نهاية مطعم شرمبي، وقبلت دعوة الرجل العجوز على فنجان نسكافيه دافئ، وهي تتطلع إلى العاصفة من وراء الزجاج. الرجل أصغر سنًا وليس عجوزًا كما تخيلتْ. يتكلم معها بأسلوب أنيق لم تعتد عليه. قال إنه في الخامسة والأربعين، ويعرف أفضل الطرق لمواجهة العاصفة، الأهم من ذلك أنه قدر ارتباكها واتصل من هاتفه بالبنك كي يستصدر أمرًا فوريًا بإيقاف السحب ببطاقاتها الائتمانية. لا يجب أن نفترض أنها تخلت عن قناعتها بقواعد الحجاب؛ لكنها مضطرة للاختلاط معه قليلاً حتى تزول الغمة.

* * *

الطرق كلها مغلقة، السيارة الكورولا التي اختفى لونها تعافر بإخلاص كي تفر به إلى لا مكان.

هذه منطقة سكنية راقية تبدو مهجورة منذ شهور. تؤدي في فتور طقوس الحداد. بيوتها كلها شاحبة غارقة تحت طبقات من الغبار الرملي، الأشجار أصفرت ومالت إلى البني الشاحب لكثرة ما تراكم فوقها. السيارات التي كانت حوله اختفت ومضاتها البرتقالية، دبيب الحياة يتسرب والأشباح الأخيرة للبشر تلاشت.

مع شعوره بالاضطراب والإرهاق وضيق في التنفس فقد السيطرة على جسمه. لم يعد يقوى على تحريك السيارة خطوة واحدة إلى الأمام، كانت ساقه اليمنى تعاني من شد عضلي وألم

غريب. يفردها ويثنيها دون جدوى. جرب أن يضغط على دواسة البنزين برجله اليسرى؛ فقفزت السيارة مثل ضفدع أحمق.

لو ركنها في أي مكان واسترخى لا يضمن ما يحدث، قد يجتاحه السيل الجارف وهو بداخلها أو يجد نفسه متطايرًا في الهواء وجسده يعلق بإحدى الأشجار دقائق ثم يسقط على شجرة أخرى قبل أن يرتطم مثل علبة كولا فارغة.

* * *

عاد المطر غزيرًا. ارتفع منسوبه لأكثر من نصف متر فوق الأرض. السماء تغير ألوانها من الأصفر الشاحب إلى رمادي ثقيل يخترقه بياض البرق الخاطف والدوي الهائل للرعد كأنه عراك أسطوري بين آلهة السماء. الفصول الأربعة تمسك بذيل بعضها البعض في رقصة مجنونة. كرات الثلج يزداد حجمها واندفاعها.. اختفت البيوت ومعالم الطريق. حركة السيارة باتت شبه مستحيلة؛ فتوقف مجبرًا بجوار جدار بيت أو سور مدرسة.

يردد الشهادتين في سره. مثل آلة معطلة بلا إحساس.

* * *

زوجته كانت تردد شهادة واحدة: «للأسف زوجي دائمًا يتخلى عني عندما أحتاج إليه» ربت الرجل الذي ظنته عجوزًا، على ظهرها بالطريقة المريبة نفسها. في هذه المرة تواطأت «قليلا» مع طريقته في تحسس جسدها من تحت العباءة؛ ثم ابتعدت بسرعة حين أحست برودة يده تعصر لحمها الطري.

* * *

تغير البث فجأة إلى بيانات عاجلة وتقارير عن العاصفة التي اجتاحت البلاد قبيل الغروب. المذيع يحذر من الاتجاه إلى الطريق الدائري الخامس لأنه مغلق، وذكر أن مواطنًا وصديقه الأردني غرقا بعدما انقلب بهما «إسكوتر» في البحر، ولقي وافد آخر من جنسية عربية وامرأته وأطفالهما الثلاثة مصرعهم إثر سقوط السيارة في مياه الخليج بسبب اختلال عجلة القيادة واندفاع الريح بسرعة ٦٠ عقدة. هم لا يذيعون سوى أخبار من تأكدوا من موتهم؛ فالموت ليس لعبة احتمالية. لذلك لم يكن هناك أي تقرير عن زوج تائه في سيارة كورولا لونها نبيذي، ولا عن زوجة تجلس مع رجل كهل في مطعم شرمبي!

* * *

مغادرة السيارة لم تعد فكرة مجدية، لأن المياه تصاعدت وتجاوزت زجاج السيارة تقريبًا. فتح أحد الأبواب يعني ببساطة أن الماء سيجتاح آخر ملجأ ويغرقه. العاصفة امرأة هوجاء تحاصره، تقذف حجارة كبيرة قاتلة في كل اتجاه، كأنها تقتلع البيوت حجرًا حجرًا. الطبيعة في حالة طمث عنيفة تشتهي وتدًا شرسًا يدقها في العمق كي تهدأ وتلتف حول بذرته بدلاً من أن تلفظها مع ما تلفظ من جوفها من نفايات.

* * *

السيارة الحيز الأخير له، يستنشق ما تبقى من أكسجين. سيأتي إنقاذ عاجل من جهة ما، وأول قرار سيتخذه الالتحاق

بأحد النوادي لتعلم السباحة. أدار المفتاح لتشغيل المحرك واستئناف السير. سيصعد فوق أي ربوة أو رصيف. صوت التكييف الخفيض ونسمته الرطبة منحاه شعورًا زائفًا بالأمان. على الأقل، السيارة ما زالت بحالة جيدة ويمكن الاعتماد عليها. حشرجة كئيبة ثم توقف المحرك. أداره مرة أخرى؛ ففوجئ بانقطاع بث الإذاعة. «وشيش» منفر حاد. شخر المحرك شخيرًا متقطعًا ثم صمت نهائيًا. ليس متأكدًا أن الماء لا يتسرب الآن إلى الداخل. ضربات قلبه تتزايد، إنهاك وبرودة وتشوش ذهني وشد عضلي يشل رجله اليمنى عن الحركة.

* * *

قبل ساعة كان يحادث زوجته ويطلب منها بكل بساطة أن تقابله أمام البوابة رقم ٦، وهي أصرت أن يذهب إليها عند مطعم شرمبي. قبل ساعة بدت العاصفة حدثًا فكاهيًا أو مغامرة لطيفة لا يمكن أن تؤدي إلى خسائر في الأرواح. أقصى ما توقعه أن تخطف الريح أكياس زوجته الثقيلة. حتى لو كانت هناك خسائر؛ فمن المستحيل أن تكون روحه بين الخسائر! كان واثقًا أكثر من اللازم بالنجاة والعثور على طريق آمن أو على الأقل العودة إلى النقطة التي بدأ منها كما يحدث في مسرحيات العبث.

* * *

الزوجة إنسانة عاقلة وعملية. تأخذ قرارات جيدة في الوقت المناسب. لذلك كان متأكدًا أنها قد اتصلت بشرطة الإنقاذ وأبلغتهم بفقد الاتصال به على الطريق الدائري الرابع؛ لكنه أصلاً لم يعد على «الدائري الرابع»؟!.. المؤسف أنه لن يعلم أبدًا بأن زوجته لم تتصل بالشرطة؛ فهي كانت مشغولة مع الرجل الذي يبلغ من العمر ٤٥ عامًا، ويعمل مديرًا لمطعم شرمبي، الذي دعاها بكل بساطة للاسترخاء ساعة أو ساعتين في الغرفة المخصصة للمدراء في الطابق العلوي، إلى أن تهدأ العاصفة.

* * *

اللعبة مدمرة وتتجه إليه. عين متيقظة تصوب بدقة كتل الحجارة لتضرب السيارة من أعلى ومن الجانبين. لماذا أصرت زوجته أن يردد الشهادتين؟ لا بد أنها تعرف مصيره مسبقًا! مرت في شريط ذاكرته وجوه زوجته، جارته المتزوجة التي كانت عشيقته لمرة واحدة في الأسبوع، صديقته في الجامعة، والعاهرة الفلبينية. فقط وجوه النساء هي التي ألحت على ذاكرته! حفلة الرجم في فصلها الأخير. الجَدي المتباهي بخصوبته يُعَاقب الآن على ماضيه العربيد. برغم أنه طوال حياته لم يعرف أكثر من خمس أو ست نساء. ربما كلهن اتحدن مع الطبيعة للانتقام منه بطريقة يجهلها.

من يدري! كل امرأة في الوجود تملك تعويذة سرية لتدمير أقوى رجل متى شاءت. ربما لم يمت أحد مهم أو غير مُهم. الراديو كاذب كبير، قد يكون هو وحده الضحية المخدوع يتململ في شرك امرأة

شيطانة أو سحر جبار تحركه طبيعة عملاقة هائجة عارية مجنونة تنثر شعرها الغجري؛ فتتطاير منه الحجارة علب الكولا التي شربتْها خلسة مع عشاقها. حجبتْ عنه الاتصال بالعالم كي تفترسه وحده وتنتقم منه. أمطرتْ من فرجها وفمها وعينيها، خليطًا من بولها وبصاقها ودموعها شكل فيضانًا عكرًا هادرًا. غيرت «ماكياجها» ألف مرة في ساعة واحدة حتى تفقده الإحساس بالمكان والأمان؛ فيستلقي خائر القوى لا يميز ملامح الأشياء. ثمة تواطؤ بين الراديو والهاتف والسيارة والمطر والريح والزوجة. لكنه لم يدرك نعمة الشك إلا بعد فوات الأوان!

* * *

الألوان كلها تميل إلى البني الكالح والرمادي، التكوينات تأخذ أشكالاً أنثوية وذكورية؛ فالمئذنة في البعيد رمادية منتصبة مثل عضو ذكري في طريقه إلى التحلل. تسربت منها هالة القداسة. آخر مجموعة من الرجال كانوا يهرولون بعيدًا فوق كوبري علوي للمشاة كأنهم أشباح سوداء في جنازة. القباب الملساء المتربة أثداء منتهكة تتطاير في الفضاء. كل الأشياء المنهارة لها تجاويف أنثى ماجنة تضخمت ألف مرة شبقًا واهتياجًا. نساء كثيرات عاريات يرقصن في الريح؛ فتتماوج شعورهن الخشنة بين السماء والأرض. تصطك مؤخراتهن الضخمة ببعضها محدثة برقًا ورعدًا ورعبًا.

* * *

زوج غبي وساذج، خرج بنية طيبة لأخذ زوجته من السوق. تصرف كأي زوج محترم؛ لكنه لا يعرف أين هو ولا أين زوجته؟! لعلها تضحك في غرفة مخصصة للمدراء بعد أن خلعت نقابها وصندلها الخفيف. لعلها تقول لرجل خبير في شئون العواصف، بأسلوبها الساخر: «هذا أفضل عقاب لزوج أحمق لا يأتي إلى زوجته في المكان والتوقيت المناسبين»!

* * *

هو متأكد أن زوجته تستطيع بسحر أسود بسيط أن تحرك عاصفة أو تقلب السماء على الأرض دون اللجوء إلى مشايخها الذين تدرس على أيديهم أصول الدين. أما كونها تخمش وجه رجل آخر وصدره بأظافرها الحادة الطويلة، وتغرس أسنانها في كتفه.. فمجرد شك عابر يرفض في أعماقه أن يستسلم له.. في كل مرة يرفض في أعماقه أن يستسلم له. الطبيعة الملعونة توجه مصيره من عتمتها السحيقة. تعرف أن من عاش يخشى الغرق في البحر يجب أن ترسل البحر إليه.

* * *

في جو ربيعي مشمس (لسنا متأكدين هل مرت أيام أم شهور بعد يوم العاصفة؟!) ظهرت طفلتهما الصغيرة على شاطئ الخليج تلهو بسيارة صغيرة جدًا عثرت عليها في الرمل. يطل منها رأس سائق يرتدي بدلة رمادية، وقد صفف شعره بعناية، ويحمل في يده اليسرى هاتف سوني أريكسون التصق بخده إلى الأبد.

هبت ريح خفيفة فسقطت السيارة من بين يديها وسبحت مع الأمواج. عينا الطفلة تتابعها وهي تتأرجح بخفة كأنها سمكة صغيرة انجرفت في استسلام نحو المصب. من بعيد نادت عليها سيدة منتقبة (بسبب النقاب لا نستطيع الجزم إذا ما كانت هذه السيدة هي أمها رغم طلاء الأظافر النبيذي الذي تميزت به والصندل الأسود الخفيف الذي ترتديه) وإلى جوارها حيث تجلس مسترخية منفرجة الساقين قليلاً، رجل يبدو في الخامسة والأربعين، يشبه إلى حد كبير مدير مطعم شرمبي.

مينادا

صوتها رائع مثل صوت هند رستم؛ لكن رائحتها ليست كذلك. تذكر كيف التقى هذه الفتاة البلهاء بالمصادفة على أحد المقاهي في الحسين، قالت له وهي تضحك إن والدها مدير عام؛ لكنه على المعاش! رآها تدخن الشيشة بطريقة غير محترفة. تضغط بشفتيها الشبقتين على مبسم الشيشة؛ فيحمر خداها وتسعل أكثر من مرة.

واصلت سحب الأنفاس بعناد؛ فقال متهكمًا: «واضح إنك تحت التمرين»! أجابته وهي تتطلع فيه بعينيها السوداوين، إنها ليست مُدخنة لكنها فقط تجاري الأصدقاء «لزوم الجو». لم يتخيل أنها ستكون فريسته بعد أسبوع واحد من جلسة التعارف؛ فهو لم يحب البثور في خديها ولا امتلاء جسمها القوي الذي يفتقد إلى التقسيم والأنوثة. أحد أصدقائه مال على أذنه، وقال وهو يغمز بعينه اليسرى: «صاحبتك شغالة ٢٤ ساعة مثل الصيدلية»!

كانت نظرتها إلى حديثهما السري وقهقهاتهما، صامتة وبلهاء. تتطلع طويلاً في من يتكلم دون أن تقول شيئًا أو تشارك في

الحديث. توقع أنها هي التي ستتصل به بعد اللقاء الأول في الحسين، وبالفعل طلبت أن تزوره في شقة العزوبية التي يعيش فيها وحده. أعطاها العنوان في ألف مسكن في عين شمس خلف محل العصير الشهير. هو لم يعجب بها بل كان أكثر انجذابًا لصديقتها المحجبة الغامضة الشهوانية المتعجرفة.

لكن لماذا يرفض دعوتها المجانية؟ خصوصًا أنها وعدته أن تشتري له زجاجة فودكا على حسابها. قال لها: مينادا.. لا تتأخري؛ ثم أغلق الهاتف.

ثمة وصف طويل وممل لها منذ أن دخلت الشقة، وكيف تحججت بالحر والرطوبة كي تتخفف من ملابسها، وتبقى بقميص نوم أسود شفاف جدًا؛ ثم أخذت سيجارة من علبة على الطاولة دون أن تستأذنه، وجاء وصف الممارسة الجنسية فاترًا مقززًا، ويخلو من العاطفة، فهو ظل يدفع بكل قوته محاولاً اختراق لحمها اللزج السميك، والعرق يتصبب منه بغزارة بينما هي مستلقية في بلاهة لا يصدر عنها أي صوت سوى ارتطام اللحم.

في مشهد آخر لا يقل غرابة، كانا معًا في مترو الأنفاق، وفجأة فتح زرار قميصه العلوي وطلب منها أن تلعق صدره بشفتيها المكتنزتين. (معقول أن يحدث هذا أمام الناس؟!).

يميل عليها هامسًا: استمري، أعمق.

ثم يهبط معها في محطة جمال عبد الناصر ويرجوها بكل صفاقة أن تعتني بشعرها القصير المجعد والملفوف كأنه فروة جدي.

فترد بكل بساطة بأنها تعرف أنه لا يحبها، ولن يفكر أبدًا في الزواج منها، بل لا تخطر على باله أصلاً إلا عندما يفشل في العثور على فتاة أجمل منها.

من خلال عبارات أخرى مقتضبة جدًا نفهم أنه «فني كمبيوتر»، وحاصل على معهد فوق المتوسط؛ ثم فجأة يتصل عليها في الواحدة صباحًا كي يسمعها قصيدة كتبها:

"عاهرتي الصغيرة

هل يمكن أن نشع ونتوهج

مثل حبات لؤلؤٍ

قوسِ قزحٍ

مثل زهرِ سيجارةٍ في فمك الشهواني؟

هذا أنا راقص الفلامنكو

وهذا جسدي فاعزفي واصهلي

ارخي ساقيك

حتى آخر صرخةٍ للشهوةِ الحبيسة

آخر ضوءٍ في عتمةِ الروح

وخزٌ جميلٌ هذا الذي تفعلين

مرغي عنيفًا

فنحن في سمائنا السرية

نوشك أن نتوهج وليس كمثلنا شيء"

من غير المعقول أن فني كمبيوتر يقرض الشعر أصلاً أو يعرف رقص الفلامنكو! وهي علاقة عابرة فكيف يكتب فيها الشعر وهو لا يحبها؟! ولو حذفنا القصيدة فلن تتأثر القصة؛ لكنها تصر أن تأخذ منه نسخة مكتوبة من القصيدة بخط يده، للذكرى. وفي المقابل تهديه شريط «أساميا» لفيروز؛ ثم نفاجأ بأنه يعرفها على ثلاثة من أصدقائه المحرومين جنسيًا ـ كما يقول ـ أولهم شاعر وناقد أدبي، والثاني يوصل بيتزا للزبائن في حي الزمالك الراقي، والثالث موظف علاقات عامة في فندق حورس. ويروي أن له صديقًا رابعًا أحبها من كلامه عنها، وأصبح مهووسًا بها برغم سمعتها السيئة منذ أن شاهدها مرة معه بعد منتصف الليل في مقهى المشربية في وسط البلد؛ لكنه رفض أن يعطيه هاتفها أو يسمح له بإقامة علاقة معها، لأنها «ملكية خاصة». وقال له دون أي مبرر إنها: «لا تغسل أسنانها من أكل الخس والجرجير». مثل هذه التعبيرات الفجة، تكشف عن النظرة الدونية إلى المرأة ووضعها في إطار التنفيس عن رغبات الرجل فقط دون احترام لآدميتها أو مشاعرها. لدرجة أنه يتحدث عنها مع صديقه المتيم بها، ويصفها بتعبير سوقي قائلاً إنها: «بنت شوارع لا أمان لها، ولا أهل لها يبحثون عنها»! ثم يسهب كيف «تدور» على مقاهي وسط البلد وشوارعها من زهرة البستان إلى ريش إلى المشربية،

وعندما التقاها بالمصادفة أمام محل عصير في شارع سليمان بك تندر عليها لأن أباها المدير العام لا يسأل عنها أبدًا!

نأتي إلى اختيار أسماء البطلين الأساسيين، نلاحظ أن كل الشخصيات بلا أسماء عدا البطل نفسه واسمه «كريم» وهو نفس اسم كاتب القصة، وهذا أمر يثير اللبس والارتباك؛ فهل هي قصة حقيقية لكنه لا يرويها بضمير الأنا، بل يحكي باستمرار عن «هو» وكأن هناك انفصامًا في الشخصية لأننا لا نستطيع التسليم بوجود شخصين بنفس الاسم، أحدهما كاتب القصة والآخر بطلها؟ وهل كان من الضروري اختيار هذا الاسم تحديدًا؟ ربما يقصد إظهار المفارقة بين الاسم وما يحمله من معاني الكرم والنبالة، والشخصية نفسها وما تحمله من خسة ونذالة وأنانية. أما البطلة «العاهرة الصغيرة» فلا نعرف اسمها الحقيقي لأنها اشتهرت بين عشاقها وزبائنها باسم «مينادا»، وحكت له إنها نامت ليلة مع عضو في حزب التجمع الشيوعي هو الذي أطلق عليها هذا الاسم؛ ثم شرحت له إن «المينادات»، كما قال لها العضو الشيوعي، كن يرافقن ديونيسيوس أثناء رحلاته متنقلاً من بلد إلى بلد، وهن شابات يرقصن ويغنين ويصرخن حتى تبلغ بهن النشوة حد الجنون.

كان من الأفضل لو ظل معنى الاسم غامضًا حتى يثير فضول القارئ لمعرفة سبب التسمية. نأتي إلى المشهد الأخير في القصة حيث يعرض البطل على «مينادا» وهما في حالة مزرية بفعل السكر، أن ترافقه للسباحة في النهر بعيدًا عن المدينة، ويقفان في غبشة

الفجر الشتوي وهي ترتعش من البرد؛ لكنها تتطاوعه كالمنومة مغناطيسيًا، وتخلع ملابسها قطعة قطعة. يسبحان معًا في الماء البارد؛ فالحرارة أقل من عشر درجات مئوية. وبرغم ارتجافها لدرجة أن منابت الشعر في جسدها انتفخت، وانتبهت لكنه ظل يحثها على مواصلة السباحة في عمق النهر، ويقول: «انس خطيئتنا، اتركيها وراء ظهرك على شاطئ لن نعود إليه». تعابير شديدة الرومانسية لمشهد أقل وصف له بأنه «أدب بورنو»!

ثم يخبرها بشكل غير مقنع أنه سيصعد إلى الشاطئ ليقضي حاجته، ويتركها وحدها تسبح سكرانة في النهر. ونفهم أنه تواطأ مع أصدقائه الثلاثة: الشاعر وموصل الطلبات وموظف العلاقات العامة كي يهبطوا إلى النهر فور صعوده، و «يغتصبوها» معًا. برغم أنها نامت معهم من قبل بإرادتها! بل يأخذ ملابسها كلها على أساس اتفاقه معهم أن يتركوها خلال ساعة ليبلغ الشرطة عنها للقبض عليها، وفعلاً يتصل بالشرطة ويرتبك لأنه لا يعرف ماذا يقول للشرطي؟

هل يخبره أنه شاهد فتاة عارية تسبح وتمارس الزنا في النهر؟ الأفضل أن يقول إنها خطر على عاداتنا وتقاليدنا؟ أخيرًا وجد الكلام المناسب تمامًا، سيقول إنه شاهد فتاة عارية كما ولدتها أمها تسبح في النهر وعشرات الشباب يلاحقونها، وربما تحدث كارثة أخلاقية تهدد الأمن العام.

طبعًا لم يتأخر الشرطي إن لم يكن بدافع الواجب؛ فمن باب الفضول، ورأى مينادا تسبح وحدها؛ فخلع ملابسه الرسمية وهبط في إثرها، ودون أن يتبادل الكلام معها ضاجعها. (هكذا ببساطة!) ثم طلب منها أن تستر نفسها وتذهب إلى بيتها. لكنها رفضت؛ فأرسل إليها زميلاً ثانيًا وثالثًا ورابعًا لإقناعها.

«كان الجميع تقريبًا يعرفون أين تسبح مينادا عارية لكنهم يتواطئون على الصمت، وجميعهم يضاجعونها ثم ينكرون ذلك».

أما البطل الرئيسي فاختفى كأنه «فص ملح وذاب»، وتنتهي القصة بهذه الفقرة الغامضة كأنها نهاية سريالية:

«سبحت مينادا عميقًا في النهر. ثم أغمضت عينيها واستلقت على ظهرها طافية في استرخاء. كان جسدها يزداد لمعانًا ونقاءً. تأخذ نفسًا عميقًا يحرر روحها من الأسى ثم تضرب الماء الساكن برجليها مثل مهرة جامحة عنيدة. تقلب جسدها العفي كأنها تحضن الماء بين ذراعيها؛ فيتماوج شعرها الذي طال وبدا أسود ناعمًا. كان الشاطئ بعيدًا جدًا لكن مينادا لم تهتم؛ فهي لا تفكر في الخروج من الماء. اكتشفت متعتها الحقيقية في السباحة دون أن تحدد اتجاهًا لنفسها. تأخذ نفسًا آخر كأنها تتشمم شهوتها الدافئة تحت إبطها. ثم حدثت نفسها: غدًا سأغير مكاني في النهر، سأذهب إلى مكان أعمق».

خطيئة الكعب

«جئت أُلقي نارًا وماذا أريد إلا اضطرامها؟»

كم تمنيت أن أضرم نارًا في الأرض كلها، في النمل والصفصاف والسحب العابرة. لم أفهم علاقة النار بالمحبة إلا بعدما تلوت الإنجيل على ضوء شمعة. قبل أن تتعجلوا في الحكم علي، كعادتكم السخيفة، أنا لست مسيحيًا، ولا مسلمًا، بل مجرد أمين مكتبة مكدود. أشغل وقتي بقراءة الكتب المقدسة فيها صور رائعة وموسيقى تضاهي موسيقى كارمن ونساء لا يفارقن خيالي.

* * *

هذه هي الصفحة الرئيسية في حياتي:

أنصرف من عملي في السادسة مساء، وتكون الكنيسة في طريقي إلى البيت. لم أنتبه إلى أن اليوم هو الأحد إلا عندما وجدت زحامًا أمام بابها الرئيسي المزين بالورود والأضواء. رجال، نساء، أطفال، وشابات ناحلات في حركة نشطة باتجاه الباب المجاور لبرج

الكنيسة. ليت لدي يومًا مقدسًا مثل هؤلاء الطيبين! أذهب إلى عملي في المكتبة؛ ثم أعود، أتعشى وأشرب الشاي في مطعم مجاور للبيت كل الأيام متساوية بالطقوس ذاتها عدا أنني أزور أمي في شقتها عصر الجمعة، وأسمع منها اللحن نفسه لأنني لم أكمل نصف ديني رغم أنني بلغت الأربعين وأبيض شعر رأسي.

أمي مثلي، ليست مسيحية ولا مسلمة؛ فهي في مناسبات معينة تزور كنيسة سانتا تريزا في شبرا، وفي مناسبات أخرى تزور سيدنا الحسين. أما لياليها فكانت تقضيها مع أزواجها الثلاثة في شرب السجائر والبراندي المغشوش الذي قضى على أكبادهم. ستضحكون لأنني أخبركم بصراحة عن أمي ذات الستين ربيعًا، وكيف أفنت بين فخذيها ثلاثة رجال أولهم أبي!

ما زالت امرأة عفية، للأساور في يدها البضة رنين الشهوة. خالطت رجالا بعدد شعر رأسها، وأسمعهم يقولون خلسة إنها «مَرَة عينها بيضا»، لم أعرف التفسير إلا بعد أن بلغت الثلاثين، هل تعرفون معنى أن أمي «عينها بيضا»؟!

إذا رأتني أعاني في تحريك الكرسي العتيد الذي تضعه وراء النافذة كي تتلصص على الشارع، تقول لي: «أبوك، كان سيد الرجالة، كان زي البغل» تلمح طبعًا إلى أنني لا أجاريه في القوة والفحولة.

في عالم الحيوان لا ينجب البغل نملة؛ لكن هذا ما يحدث أحيانًا في عالم البشر. أنا مجرد نملة صغيرة، أخدم كل يوم

عشرين أو ثلاثين قارئًا. أكره ضعفي، شعوري بأنني تحجرت في مكاني وفي عملي، بينما الناس من حولي يطيرون إلى المجهول. أكره النمل الذي يقضي أيامه ولا يغير شيئًا من طقوسه، كأنه يقدس كل شيء أو عاجز عن فعل أي شيء. أكره الجزء الأنثوي الغامض والخفي في شخصيتي، والمعاند لفحولة أبي وشهوانية أمي.

هل سيصاب العالم بضرر فادح إذا أشعلت النار في أمي؟ ورتبتها هكذا: عجوز سكيرة تركت سيجارة البلمونت مشتعلة بين يديها ثم غفت وهي جالسة؛ فالتهمت النار ستارة النافذة والكرسي العتيد الذي تختبئ بين حوافه العالية، للأسف لم تظهر كثافة الدخان من النافذة المواربة إلا بعد أن ودعت الدنيا، ولحقت بفحولها الثلاثة!

سأضرم النار في المكتبة وقرائها العشرين، ما جدوى مئات الكتب الصامتة على الرفوف برائحتها المتربة؟! ثم إن هؤلاء القراء أقرب إلى مرضى نفسيين، يأتون إلى هنا لأنهم لا يجدون مكانًا آخر يذهبون إليه، المبرر المعتاد في هذه الحالات تماس كهربائي.

نعم، «جئت أُلقي نارًا على الأرض» لكنني حتى هذه اللحظة لم أجرؤ على إِشعال عود ثقاب واحد!

* * *

«إني أكره القلوب الفاترة: بما أنك فاتر، لا حار ولا بارد فقد أوشكت أن أتقيأك من فمي».

هذا هو أنا لا حار ولا بارد، أخاف من المعاصي التي تحذر منها الأديان كلها، أخاف من السجائر والبراندي وأفخاذ النساء وبيع كتب المكتبة خلسة بنصف الثمن. لا أتذكر أنني غامرت يومًا ما أو ارتكبت حماقة صغيرة. شخص مسجون بين رفوف الكتب، يسمع عن الحياة من ثرثرة الآخرين؛ لكنه لا يراها:

«أنا عطشان»

نداء استغاثة قرأته في أحد الأناجيل، هذا بالضبط ما أشعر به، عطش جارف للحياة، رغبة عارمة في كسر القيد السري الذي يكبل قدمي، ويمنعني من الانطلاق إلى لا مكان. لماذا لا أهجم بسكين على أي شخص في الشارع ينظر إليّ بازدراء أو إشفاق؟!

* * *

الخطيئة أتت إليّ عبر نافذة «الباص»:

لا بد أنكم قرأتم يومًا حكاية الإمام الشافعي عندما رأى كعب امرأة دون أن يتعمد، وكان مشهورًا بسرعة الحفظ؛ لكن هذه الواقعة أصابته بالنسيان؛ فشكا ما به إلى أستاذه «وكيع» قائلاً:

«شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يهدى لعاصي»

ستقولون: ما دخل الشافعي بما كنت ترويه قبل قليل؟ إنه «الكعب»، نعم؛ فما حدث مع الإمام الجليل، حدث معي بالضبط، ألستم مقتنعين أن بعض الأحداث تتكرر ولو بعد ألف سنة؟ صحيح هو نظر إلى كعب امرأة مسلمة ولم يتعمد؛ لكنني ولسوء حظي نظرت من النافذة إلى كعب امرأة مسيحية وكنت متعمدًا. أطلت النظرة إلى أقصى ما بلغ البصر؛ فمسني اضطراب عظيم، نار تأججت في روحي ولم ولن تخمد أبدًا.

أتت الخطيئة إليَّ، لم أرتب لها، لم أخرج إلى الشارع بحثًا عنها، لم أصغ إلى صديق السوء ولا تعاليم أمي الفاسدة، بل كنت أمارس حياتي المعتادة، أمر في السادسة مساء أمام الكنيسة في «الباص» مع آخرين، في هذه اللحظة انتبهت إلى الزحام ومن بين كل الرجال والنساء تعلق بصري بحركة كعبها، هذا هو الكعب الأحمر الذي غنى له عبد العزيز محمود: «يا أبو الخلاخيل يا اللي كعابك فوق قبقابك.. ورد في ميه»

لم أر كعبين مستديرين حمراوين، بل وردتين تتناغمان مع الإيقاع الموسيقي لردفيها المرتفعين. امرأة ممتلئة قليلاً تكونت بمزاج كما يشتهيها المزاج. ستمر بعد قليل من باب الكنيسة وتدمع عيناها وهي تتذكر قيامة الرب يسوع. تخيلت آلاف الورود تهبط عليها من السماء الآن لكن لا أحد يراها.

لعنت حظي أنني محشور في «الباص» مع أربعة عشر راكبًا، الوردتان تتباعدان على الطريق، وأنا وحدي أسمع رنينهما بشهوة

خافتة متأنية،؛فهما عالقتان في ساقين بيضاوين مغزولتين بنعومة وامتلاء.

ليس الجمال وحده ولا الامتلاء الحلو ولا البياض؛ بل شعوري الجارف بأنها «مستحمية» ـ عفوًا على هذه اللفظة ـ لكنني فعلاً ضعيف جدًا أمام أي امرأة تحممت للتو. أعشق رائحة الصابون والنظافة أكثر من أي عطر آخر. أعشق الوجه مرطبًا بالندى والماء وليس بالأصباغ والماكياج.

ترتيب القدر دفع أمام عيني كعب المرأة، وأنفي خرج وراءها يتشمم رائحتها النظيفة. تلك هي ملاكي التي ستروي ظمأ السنين، هي الغانية التي ستصب لي كأس النبيذ بل هي الكأس والسكر والزمن واللذة.

أخرجت رأسي من نافذة «الباص»، وأنا أصيح دون صوت:

«أنا عطشان»!

* * *

مواعظ العشيقة الغائبة للعاشق الغائب:

«يجب ألا تشك أبدًا في محبتي، حتى متى غبتُ أو بدا لك أني غائب؛ فإني لا أزال شعلة الحب الكبرى».

وردتان حمراوان قدحتا في قلبي شعلة الحب الكبرى. ما حدث في الواقع أنني فقدت أثرها في الزحام و«الباص» انطلق مع فتح الإشارة. كما وصفت لكم ليس في صفحة يومي العادي، سوى أمي

العجوز، وجودي كله ليس فيه امرأة بكل هذا البهاء، لا في الحلم ولا اليقظة، كأنها إلهة من آلهة الإغريق والرومان، تجلت عليَّ في صورة سيدة على دين المسيح.

تجلت خلسة فأشعلت النار في قلبي البارد، النملة التي تقضي عمرها بين رفوف الكتب تعملقت فجأة، شعرت بمذاق حلو لوجودها؛ لكن ماذا أفعل كي أسترد إلهتي الفاتنة كي أنحني وألثم كعبيها الورديين المغسولين؟

عشيقة غائبة لا وجود لها في وجودي، كما إنني عاشق غائب لا وجود لي في وجودها؛ لكنها شعلة الحب أطلق شررها القدر ذات مساء من أيام الآحاد. ألا يكفي دليلاً على وجود الله أن يده الإلهية رتبت لي هذه الهدية القدرية بعد أربعين عامًا من الملل والانتظار؟! فقط جسدي غارق بين رفوف الكتب؛ لكنني غائب كليًا في ملكوتها، في السادسة مساء كل أحد أهبط من «الباص». أشق قميصي وأهرول كالمجنون نحو باب الكنيسة. أصيح وملايين الورود تمطر عليَّ من السماء:

«أنا عطشان»!

لكن الراهب لا يسمح لي بالدخول! أقسم لك يا سيدي الراهب أنني على دين عيسى، ألا تراني مبللاً بورد المحبة؟ هو يهمه أن أكون على دين عيسى، وأنا يهمني أن أجلس على بعد مقعدين من ذات الكعبين.

في الأحد التالي جلست على المقعد المجاور لها مباشرة، وأصغيت بكل جوارحي إلى موعظة أبينا؛ لكن صوته كان يتحول إلى صوتها، ملامحه الصخرية تذوب في ملامحها، هي المؤمنة التي تجلس إلى جواري؛ وهي ذاتها الواعظة أمام المذبح:

«لأني عطشان إلى الحب، عطشان إلى رؤية العالم في سعير الحب، أريد أن يصير البشر شعلة من الحب ليشبهوا روح أبيهم السماوي»

أردد مغمض العينين كل كلمة. ليس بصوتي بل بصوتها الرقيق المنساب على حافة روحي. أمد يدي خلسة لألامس يديها، ملامسة المحبة والامتنان.

مرت أربعة آحاد ونحن نجلس على مقعدين متجاورين، نتلامس سهوًا أو قصدًا، إلى أن تعارفنا في فناء الكنيسة وتكلمنا:

ـ اسمي علي.

ـ وأنا لورا.

ـ نعم؟

ـ لوو... را.

ابتسمت بارتباك:

ـ أنت مسلم؟

ـ لا، مسيحي؛ لكن أمي خافت عليّ من الموت مثل أخوتي فاسمتني عليًا.

تبادلنا أرقام الهواتف، لتوطيد المحبة التي تحض عليها تعاليم السيد المسيح. هي موظفة في بنك. ليس في حياتها تفاصيل كثيرة، لها أقارب في الصعيد لكن نادرًا ما يزورها أحد. تقضي وقتها في أمور روتينية مثل تنظيف البيت وغسل ملابسها بنفسها أو رش أصص الزرع المنتشرة في الغرف والصالة والنوافذ. تفعل أشياء بسيطة جدًا بمحبة كبيرة. إذا غبت تسأل عني فورًا بعد عودتها من القداس. أما إذا اعتذرت لها بأنني لن أذهب، أفاجأ بأنها أيضًا قررت ألا تذهب. تعرف أننا لن نخدع الله أبدًا في قلوبنا.

تتصل بي كل ليلة قبل النوم. فاتها قطار الزواج ولا يشغلها سوى عملها وخدمة الكنيسة، إنسانة طيبة، رقيقة ونظيفة جدًا، زارتني في المكتبة بعد أن غبت أسبوعين عن القداس. قالت إنها ستساعدني في تقوية إيماني، وأهدتني ترانيم الجمعة العظيمة لفيروز؛ ثم مالت على أذني وهمست بصوتٍ حنونٍ وناعمٍ مثل نعومة الياسمين:

«في وقت ٱفتِقادهم يتَلألأون وكالشَّرَر بَين القش يَركُضون»

* * *

هل يصح أن أُعاقب لأن كعبك ظهر يومًا في طريقي؟

لم أتخيل يومًا أنني سأعترف لأبينا الذي في الأرض ولا لأبينا الذي في السماء. لأنه أصلاً ليس في حياتي ما يستحق الاعتراف، موظف في مكتبة يعيش كالنملة وأمه «عينها بيضا»، لم يعرف الحب في يوم من الأيام؛ فكيف يعرف الخطيئة؟!

كانت لورا رقيقة أكثر مما يجب، ترى فيَّ الرجولة التي لا تراها أمي، نجلس معًا على الكورنيش ساعة، ساعتين، نتكلم كثيرًا دون أن ننطق كلمة واحدة.

كما زارتني في المكتبة، زرتها للمرة الأولى في بيتها. تحممت وحملت باقة من الزنابق البيضاء ثم ذهبت.

«هائنذا واقف على الباب أقرع؛ فإن سمع أحد صوتي وفَتَح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي».

كنا في مطلع أكتوبر، ثمة نسمة خريفية لاسعة، قالت إنها لا تريد أن تعصي الرب معصية كبيرة، وأنا قلت لها إنني مسيحي علماني لا أفكر كثيرًا في الخطايا والذنوب والاعتراف لأحد.. كل الطقوس الدينية لا تعدل أن أقبل كعبيك.

كانت مرتبكة. للمرة الأولى أراها في ثوب شفاف من الدانتيلا وشعرها الطويل ينسدل إلى الخلف.. زمت شفتيها الرقيقتين وهي تضم يدي إلى صدرها ثم بكت. لا أريد لها أن تكرهني، تضمني إلى صدرها وتهمس:

ـ لا تقترب أكثر.

ـ هي المحبة جاءت بي إلى هنا!

جفلت كالفرس ونهضت. تركتني جاثيًا بجوار الأريكة. تشاغلت بوضع الزنابق في المزهرية. أدارت موسيقى كارمن في جهاز غرامفون عتيق اختارت له زاوية بارزة في الصالة؛ ثم أضاءت شمعتين طويلتين.

عندما أحست الضيق والنفور على وجهي قالت وهي تقف في البعيد ولا تتطلع بعينيها:

ـ «أنت أيضًا فيك أن تكون قديسًا»

تصورها الساذج، الخفي والبريء، أنني أحمل بذرة قديس في روحي؛ لكن الشيطان يمنعني من اكتشاف الجوهر. هي امرأة مثل لؤلؤة نقية لا تحتمل ذرة غبار أو شرخًا خافتًا:

ـ أنا وأنت أكبر من أن نقع في الخطية!

ـ «وحدها المحبة تبقى».. أليس هذا كلامك؟!

كانت معي زجاجة براندي في كيس بني لم أفتحها حتى هذه اللحظة، أخبرتها أنني موافق على أن أتلو معها الأناجيل كلها على ضوء شمعتين بشرط أن تلبي رغبتي الجارفة في لعق وعض كعبيها.

تناقشنا طويلاً عن الرب والمحبة والخطية والبراءة؛ ثم أخفت رأسي في حضنها بحنانٍ ورقةٍ:

ـ تعرف.. أنا يتيمة من عمر أربع سنوات.

ـ وأنا يتيم من قبل أن أولد.

كنت طفلاً كبيرًا يستلقي في حضنها.. ألم يقل يسوع: «إن لم تعودوا كالأطفال لن تدخلوا ملكوت السماوات»، أنا الذي لم أبك في جنازة ولا خسارة ولا خيانة صديق، وجدتني أبكي بغزارة، كل الدموع التي احتفظت بها أربعين عامًا هطلت كالمطر حتى ظننت

أنها ستملأ صالة بيتها وتغرقنا معًا. بينما موسيقى «كارمن» تبدو لي بعيدة جدًا، إنها التجسيد الحي والإلهي لحزننا العميق، للصوت الموسيقي الكامن والمعذب في أعماقنا، تنهدت وقالت:

ـ أفهم ضعفي وضعفك.. لا أريد أن أستسلم.

ـ «من لا يحب لا يعرف الله»!

انتبهت إلى رقة صوتها ونبرة الحزن، للوهلة الأولى يبدو جسدها فائرًا، كجسد امرأة ناضجة في الأربعين اختبرت كل أشكال اللذة؛ لكن صوتها بكر، صوت فتاة ورعة خجول بالكاد تجاوزت العشرين من عمرها! قالت:

ـ أريد أن أصعد بك إلى السماء وأنت تشدني إلى الأرض.

ـ امنحيني المحبة كي أتغير.

استسلمت...

أخيرًا استرخت على الأريكة وهي بكامل أناقتها، رائحتها الزكية تتسلل إلى أعماقي مثل الموسيقى. رفعت رجليها العاريتين فوق الحافة، وأنا جلست بينهما وفي يدي كأس البراندي. تشاغلتُ بالكلام عن زيارتها إلى لبنان، وكيف نامتْ خمس ساعات في دير القديسة «تريزيا»؟! الطفل يسوع في سهيلة في كسروان، وتغيرت نبرتها فجأة:

ـ تعرف، القديسة الكرملية أخبرتني أنني سأموت شابة.

صمتتْ قليلاً؛ ثم قالت إنها غير مرتاحة وترغب في الاعتراف بما جرى بيننا. شرحت لها نظريتي بأننا نعترف عن الخطايا وليس عن المحبة، وإذا اعترفنا فهذا يعني قبول العقاب. هل يصح أن نعاقب لأن كعبك ظهر يومًا في طريقي؟!

غمست كعبها كله داخل الكأس ثم رحت أرشف قطرات الخمر المسالة فوقه، وأعض بقوة متوقعًا أنها ستتألم. أدغدغ بأسناني اللحم اللدن وألعق بلساني وردتين بمذاق الخمر. تصورت أنها غفت على الدغدغة الخفيفة والموسيقى. بينما كان تمثال السيدة العذراء يطل علينا ويشع باللطف والمحبة وابتسامة مباركة.

الغواية الأولى

(إلى سيد الوكيل وسمير الفيل)

طفلي المنتظر، ما زال نائمًا في عالم الغيب، وأنا أترقبه هنا في عالم الشهادة كي أعطيه اسمي وملامحي وطباعي.

لكن طفلي...

طفلي قطعة اللحم الصغيرة التي تشبه سمكة جمبري ملتفة حول نفسها، طفلي هز رأسه الكبير وضرب برجليه بطن أمه متمردًا عليها، وعلى أحلامي فيه.

قال الطبيب إن جدار المشيمة انفصل نحو ٤٥ مللي.

كانت زوجتي شعرت بآلام لا تحتمل في البطن والظهر، خلال دقائق كنا في مستشفى الرحمة الاستثماري في شارع مكة. وضعتُ يدي على بطنها شبه المنتفخة وقرأت آية الكرسي. أريد بأية وسيلة إيقاف هذا التمرد غير المتوقع، أُطمئن صغيري ألا يخاف وألا يهدم بيته الجنيني على رأسه.

تحرك الطبيب بسرعة وقد زم حاجبيه الكثيفين. كان غليونه مطفأ في زاوية فمه؛ لكن رائحة التبغ تنبعث منه. تتحرك خلف خطواته ممرضة هندية ابتسامتها منكسرة، كلما دارت حوله فاحت منها رائحة فلفل حار.

علقتْ الممرضة محلول الجلوكوز فوق القائم الفضي بعدما أذابت بداخله حقنة لتثبيت المشيمة قبل الانهيار الكبير.

زوجتي صرخت عند إدخال إبرة المحلول في الوريد، عصرت يدها العرقانة في يدي فطفرت دمعة في عينيها. تعلقت عيناي بالسائل وهو ينز من الأنبوب الشفاف قطرة قطرة، كأنني أعد اللحظات والقطرات.

الطبيب أراني على الشاشة تهويمات رمادية، وفي وسطها مخطط بسيط لصغيري وهو يهز رأسه بطريقة ساخرة. اسمعني نبضات قلبه: «بُم بُم بُم» مضاعفة ربما آلاف المرات، بينما يتحرك النبض في خط متعرج فسفوري حتى آخر الشاشة؛ ثم يتلاشى كموجة صغيرة لا تكاد تُرى.

انتظرناه طويلاً.

انتظرناه وأعددنا له المهد والألعاب وعرائس القماش، الحفاضات، شموع السبوع التي سيحملها أطفال الجيران، الغربال المطرز بالدانتيلا. جدته أم السعد أهدتنا قبل سفرنا بأسبوع كيسًا مملوءًا بالحبوب السبع، حبوب الخير والبركة! عندما علمنا بالحمل

للمرة الأولى، لم ننم. ظللت أنا وزوجتي ليلتها نتخيل أنفسنا أبوين، نشحذ الذاكرة بكل الأسماء الجميلة في تاريخ العائلة. في حال جاء ذكرًا وفي حال كان أنثى. أعطيتها حق قرار التسمية إذا جاءت بنتًا؛ فاقترحتْ «مريم» على اسم أمها، ومنحتني الحق نفسه إذا كان ولدًا؛ فقلت: «محمد» على اسم المرحوم أبي.

تمنيتُ أن أشم رائحته وهو لحم طري تتحسسه يدي فور أن يهبط إلى الحياة؛ لكنه أمس شد بأظفاره، التي لم تتكون بعد، أحبال المشيمة وشعيراتها. طفلي قرر أن يهرب مرة واحدة وإلى الأبد، بلا ملامح وبلا بطاقة هوية. لا يريد الاستمرار والبقاء هنا.. ولا هناك، ولا في أي مكان آخر. سيقفز فوق حافة الموت غير مبالٍ بحياة لم يعشها بعد. لعله لا يريد أن يقتفي آثار أخطائي، ولا دخولً كوابيسي ليلاً. ليس مضطرًا لمحاربة أعدائي، ولا الترحيب بأصدقائي نيابة عني، في حال لم أعد موجودًا.

حذرنا الطبيب من أي إجهاد قد يزيد خطر الانفصال إلى ١٠٠ مللي، ساعتها قد تتهاوى المشيمة مثل بركان دموي، أشلاء لحم ودم يغرق فيها طفلي. سيتوقف قلبه عن إطلاق: «بُم بُم بُم» على شاشة الكمبيوتر. الطبيب أكد أن هذا يحدث كثيرًا بسبب ارتفاع ضغط الدم أو نقص حمض الفوليك؛ لكنه طمأنني فحتى الآن الأمور تحت السيطرة، وحمض الفوليك اللعين لم يهزم طفلي.

أجلس بجوار زوجتي صامتًا متوقعًا أن هذا المخلوق الذي لا يُرى إلا عبر شاشة رمادية سوف يسقط في أية لحظة، ويفسد علينا متعة تسميته. ليس من حقه طقوس دفن طالما أن وجوده كله لم يتجاوز

تسعين يومًا، كل ما فعله طوال هذه الأيام المعدودة أنه وخز بطن أمه ونزع شعيرات المشيمة من جدار الرحم. هل ظن أن تلك الوخزات الخفيفة جريمة لا تُغتفر، وأننا سنعاقبه عليها فور أن يهبط؟ لعله ارتعب من الفضول وترقب العيون حوله، هل أرعبته جدران المستشفى الكئيبة، روائح الأدوية، ظلي الذي يدور محمومًا حول بطن أمه؟!

ذهبت إلى الصيدلية المجاورة للباب الرئيسي للمستشفى لشراء «الدفاستون» المنقذ. الصيدلانية السورية أو الفلسطينية ـ لستُ متأكدًا ـ لاحظتْ أنني أنظر إلى بطنها المرتفعة جدًا قياسًا لقصر قامتها. حسدتها في سري لأنها بيضاء كالقشدة. شرحتْ لي بأن السمراوات أكثر عرضة للإصابة بانفصال المشيمة.

«امرأتي ليست سمراء تمامًا» هكذا قلت.

حذرتني من الممارسة؛ فقلت لها متعجلاً الانصراف: «مفهوم».. ولا بد من الراحة التامة في الفراش. انصرفت وبقية نصائحها بالكاد تلامس ظهري الذي ينزلق عليه خط عرق بارد.

في بهو المستشفى لوحة كبيرة جدًا لمنظر ريفي يتوسطه نهر يجري إلى ما لا نهاية إلى خارج إطار الصورة، وفوقه طيور بيضاء تحلق وتنخفض في حركة أبدية لا تزيد ولا تنقص. إلى الأعلى من جهة اليسار متاهة حلزونية رخوة تنقبض وتنبسط حول بقعة بيضاء، مثل تلك اللوحات الصينية التي توهمنا بالحياة والحركة ليست سوى صور كهربائية رخيصة تم تصميمها بحيلة بسيطة!

كيف لم أر هذه اللوحة طوال اليومين الماضيين؟!

في الممرات البيضاء، المضاءة بضوء أبيض ساطع، تظهر ممرضات حوامل يتهادين ببطء. كن يتصرفن بغرابة ويربتن على بطونهن لإغاظتي. زوجتي لا تستطيع أن تسير مثلهن! ليس أمامها سوى أن تستلقي على ظهرها لساعات شبه نائمة. تبكي، تتألم... لا يهم، طالما أن حبة فؤادي يحاول التمسك بالحياة مرة أخرى قبل أن ينزلق من بين أيدينا إلى العدم ولا يعود أبدًا.

«الدفاستون يا حبيبتي»!

ألمس في حنان يدها، أتعجب في سري: متى وكيف تعطرت برائحة الياسمين؟! جميلة في كل حالاتها ورائقة، لا تستغني عن فرشاة الأسنان والعطر والمرآة ومشط وردي يناسب حقيبة اليد. أشياء زوجتي منمنمة مثل ملامحها. كانت تبكي طويلاً لأن الألم يفسد عليها زينتها أمام الغرباء.

أواسيها فننمتم بشفتيها الذابلتين. أستلقي بملابسي متعبًا على سرير المرافق إلى جوارها، أبقى منتبهًا لأقل حركة، وإن كنت أغفو من التعب أكثر من كوني نائمًا. أتمتم بآية الكرسي وأدعية مرتبكة تأتي عفو الخاطر. انتبهتُ إلى الممرضة الهندية وهي تقف بين سريري وسرير زوجتي. ترفع إبرة الحقنة بتلقائية. ظننتها ستعطيها لزوجتي لكنها انحنت قرب وجهي، وقالت: ستساعدك على النوم.

«لا أحتاج إليها، أكره الحقن»

لستُ متأكدًا إن كنت قلت لها ذلك أم لا؛ لكنها كانت صارمة لا تبالي بما أقول وهي تشمر ذراعي:

«هل نسيت فعلتك؟ أمس فقط ركلت «إيزيا» المسكينة عندما قابلتك في حديقة الطواويس البيضاء وهي حامل!»

أي حديقة؟ أي طواويس؟! لا أعرف من هي «إيزيا» المسكينة ولا عما تتحدث هذه الممرضة المجنونة، ولا متى غادرت غرفة زوجتي! كل ما أعرفه أنني رأيت نفسي أسير ليلاً محنيًا في دروب قريتي البعيدة، هناك تنفست الحياة، القرية كلها كانت تغط في سبات عميق. قطرات الندى تلمع فوق البيوت وأكوام القش وشجر الصفصاف. ملكوت من الصمت والضباب الأبيض. في تلك الشوارع المبللة بالندى، وبمحاذاة هذا النهر الذي اختفى تحت طبقة ضباب كثيفة رأيتني ألعب، أجري، أصرخ على أصحابي بأسماء أمهاتهم.

بياض وصمت ولسعة برد.

كنت أحمل في يدي كيسًا أسود به أشياء غريبة. ماذا بداخله؟ حتمًا طفلي يستلقي منكمشًا، يتأرجح وسط ماء قليل في قاع الكيس كأنه سمكة جمبري خجول. كان هشًا رجراجًا، أشعر بحركته في الكيس المعلق في يدي اليسرى. أحمل مأساتي في يدي وأمضي وسط الضباب؛ ثم تكشفَ أمامي قطيع كبير لغزلان بيض، قادمة نحوي، كانت تسير ببطء في خطوات جنائزية، بطونها المنتفخة تحتك ببعضها البعض. راودتني رعشة أو رغبة في ملامسة دفء بطونها اللاهثة.

لماذا تسير الغزلان الحوامل وحدها مع النهر؟!

كل غزالة تحمل حلمها في أحشائها وتسير حسب القدر المرسوم. أمرُ مخترقًا قطيع الغزلان السائر على إيقاع الأبدية، باتجاه البر الغربي. هناك خلف الجبل المائل إلى الحُمرة، يخايلني وجه الله بين السحاب؛ كأنه يبارك سرب الغزلان. لن أخبر أحدًا حتى لا يتهمني بالجنون.

لستُ بحاجة إلى فتح مقابر العائلة، سأدفنه هناك في الساحة الترابية بين الجبل والمقابر. هذه الساحة كانت تتحول في الشتاء إلى مستنقع لأعواد البوص والغاب والبعوض. سأغمره بالتراب الندي، قبل أن يراني أحد. يكفي أن يرتاح هنا تحت طبقة سميكة من التراب بالقرب من أموات كبار عاشوا فعلاً. هو لم يمتلك لسانًا بعد كي يتحدث معهم. ليس له أذن كي يسمع حكاياتهم النادمة على الوجود وعدم الوجود.

بعض السوائل الغامضة تنز من أسفل الكيس وتبلل قدمي، أي أب مستهتر أنا! أحمل أشياء غريبة في كيس واحد مع طفلي؟! هل معقول أن يولد ابني من كيس هش به ماء ورائحة سمك وخشخشة ميدالية وقصاصة ورق؟ ليس من اللائق أن أخفي نضارة وجه ابني تحت كل هذه الشوائب، ولا تحت الزخارف والزينة المبالغ فيها!

أقف على شاطئ النهر وحدي. أقذف كيسي الأسود بكل ما حواه في الماء المظلم العميق. أقذف بعنف الكائن الذي لم يكتمل. أستعيد لحظة فرح طفولية قديمة. عندما كنا نقف مع رفاق الطفولة فوق الكوبري الحديد، ونقذف بأشيائنا الصغيرة في مجرى النهر.

نتأملها بفرح وهي تطفو قليلاً ثم تغرق! ربما نحاول أن نستبقيها لمرة أخيرة في الذاكرة، كي نستعيد صورتها كلما رغبنا. كنتُ أجري على الشاطئ فرحًا بالماء، النسمة المنعشة، خضرة الحقول الشاسعة، أليس كل ما يعز علينا ـ شئنا أم أبينا ـ نلقيه في نهر النسيان؟! لكن.. شعوري الفرح النزق يتبدل إلى أسى وصمت. ليس سهلاً الشعور بأن الشيء الذي كان معي قبل دقيقة واحدة ـ حتى لو كان تافهًا ـ قد ضاع إلى الأبد. هل سأستعيده مرة أخرى أم لا؟! مثل ومضة تلمع في داخلنا للحظة ثم نعجز عن استعادتها إلى الأبد.

ابني سيطفو بعد قليل فهو سمكة جمبري حمراء وعنيدة. ستعثر عليه الشرطة عند مصب النهر عالقًا بأحد السدود الحديدية الصدئة، وسط غابة من الأكياس الفارغة وعلب العصائر وأعواد القش وأحذية قديمة تخص أشخاصًا لا يعرفهم. سيلقون القبض عليَّ لإزهاق روح لا اسم لها. قد يحررون بلاغًا ضدي لأنني لم أدفن جسده الذي لا يتجاوز ١٢ سم في مقابر أجداده.

الضباب ينزاح قليلاً إلى أعلى أشجار الصفصاف، قطيع الغزلان الحوامل اختفى. كان نوار البرسيم الأبيض يغمر مساحات الحقول الشاسعة. أخيرًا عثرت على نخلة مشقوقة نصفين، كانت منصوبة بالعرض فوق النهر. تبدو مهترئة لكثرة ما مر عليها من أقدام. بها ثقوب صغيرة كأنها عيون تراقب جريان النهر أسفلها. هنا في البر الغربي مقابر العائلة موزعة على ثماني عيون، نصفها مغلق ونصفها الآخر مفتوح ينتظر الموتى الجدد. الكيس ما زال ينز في يدي،

زوجتي خلفي فتحت نافذة بيتنا المطلة على النهر، كأنها شبح غاضب أضاء الضباب بصراخها الوحشي، ونداءاتها المتوسلة كي أعيد إليها قطعة اللحم الصغيرة:

«هات ابني»

«هات ابني»

«ابني».

لا أدري من أيقظها! ولا كيف كنت أسمعها رغم المسافة البعيدة. امرأة مجنونة! تركتها وقطرات المحلول تنز بهدوء وتساقط في وريدها، وكانت شبه نائمة متوجعة من آلام الظهر والبطن، حتمًا أصابها مس من الحمى. أتخيلها ورائي منكوشة الشعر في تلك اللحظة، لا تفهم ما يجري!

كيف سنحتفظ بطفلنا وأين؟ هل يحق لنا أن نأخذه معنا عندما نموت؟ هل ستسمح لنا شرطة المقابر بوضع جثث أطفالنا في ثلاجة المطبخ خوفًا عليهم من الموت؟ ألا تفهم هذه المرأة السمراء النحيلة أن المشيمة انهارت. نعم، المشيمة انهارت كليًا ولم يعد لها وجود.. كيف سيتغذي طفلي؟! هل سترضعه تلك المجنونة قشدة سورية أم نوار البرسيم؟!

لا تريد أن تفهم! الكيان الصغير الذي انتظرناه طويلاً انفصل، انفصل، أجل انفصل. أخفق «الدفاستون» اللعين في إنقاذه. مهما فعلنا لن يحبو في بيتنا القديم في القرية، لن يرتدي الحفاضات

التي اشتريناها، لن استمتع بزجره حين يجذب الأشياء المرتفعة نحو رأسه الطري. شرطي الجبانة سيقف باستعلاء وهو يدخن غليونه: لن نسمح لك بأن تمنحه اسمًا، وتسجله في سجلات النفوس التي عاشت وماتت، حتى لو عاش تسعين يومًا فقط، لن نسمح لك!

«طفلي!»

طفلي سمكة الجمبري فهم اللعبة وأراد الخروج، سيخرج من اللعبة قبل أن تبدأ. أراد الخروج لكن قلبه لم يدرك اللحظة المناسبة! رغبة في الخروج إلى اتجاه مجهول! زوجتي بجواري تصرخ منكوشة الشعر وتشد يدي بعنف.

«طفلي»!

«طفلي»!

اتصلنا بالدكتور:

«الحقنا.. بقع دم، بقع كبيرة وغامقة».

سرد لنا أدوية أخرى كثيرة لمنع النزيف، وتثبيت المشيمة، وتقوية أعصاب الأم المنهارة. أخذ أجره كاملاً قبل أن يطمئننا:

«استمروا، حافظوا، نامي على ظهرك يا سيدتي لو سمحت، استرخي، لا تتحركي، الخطر سيزول بعد أسبوع، افعلي كل شيء ممكن حتى لا يزداد الانفصال اتساعًا».

أوامر وتعليمات، أوامر وتعليمات، مثل تلك المتاهة الرخوة في اللوحة الصينية التي تنقبض وتنبسط إلى ما لا نهاية! ابني أخذ قرارًا بألا يهبط إلينا، لن يبكي ويبتسم في وجه أبيه وأمه المتعبين، المنتظرين بلهفة وشوق. فقط يعذبنا قبل أن يقرر عدم المجيء، أو بالأحرى الخروج إلى مكان آخر لا نعرفه. حتى لو نجحنا فعلاً في أن نعيد الالتئام إلى المشيمة واستردت شعيراتها والتصقت مرة أخرى بجدار الرحم، وعاد صغيري يسبح في ماء وجوده الأول آمنًا مطمئنًا؛ ثم وقبل نزوله مباشرة غدر بنا وشد بأظفاره بكل عنف وقسوة خيوط المشيمة؟ حتمًا سينقطع نَفَسه ويحرم من الأكسجين وقد يولد ميتًا!

معقول! نجري هنا وهناك في أروقة المستشفى، بين معامل التحاليل، سونار وأدوية وانتظار ولهفة وقلق، وفي الأخير نستقبل هدية السماء جثة؛ ثم علينا أن نصبر ونحتسب. ماذا لو نزفت الأم دمًا متخثرًا ثم سال وفاض دمها كله ملوثًا الشراشف البيضاء؟ سيقتلها معه، وأبقى وحيدًا. أخسر شريكًا بدلاً من أن أستقبل شريكًا آخر. هل سيتسع ساعتها كيسي الأسود لزوجتي وسمكة الجمبري معًا؟

«الحقنا يا دكتور، دم، دم وألم شديد»

جاء مهرولاً وقد زم حاجبيه الكثيفين أكثر. دخل علينا غرفة الطوارئ العابقة بروائح عرق مخلوطة بمطهرات نفاذة. قفزت وراءه إلى داخل الغرفة ممرضة فلبينية بيضاء وبدينة.

«اطمئن». أسمعني الصوت مضاعفًا على الشاشة:

«بُم بُم بُم»

إذن هو بخير، ما زال حيًا يُرزق، يقولون إن الانفصال العنيف في اللحظة الأخيرة قبل الميلاد قد يؤدي إلى مرض عقلي أو إعاقة بدنية. بعد كل هذه المعاناة ننتظر طفلاً مختلاً، منقوصًا، من ذوي الاحتياجات الخاصة، أو ميتًا، احتمالات سوداء، لا نعلم أيها سيختار القدر لنا! كيف نتماسك ونظل على اللهفة نفسها؟ هل اغتربت أنا وزوجتي كل هذه السنين في صحراء الدمام كي نربي طفلاً معاقًا لا مستقبل له؟!

نزفنا من مالنا ودمنا وأعصابنا ما يكفي، سأقول للطبيب: من فضلك نحن نحترم رغبة طفلنا. دعه، ساعدنا كي نعيده مرة أخرى إلى المجهول الذي أتى منه؛ لكن كل كوابيسي، كل نواياي الشريرة كانت تتبدد وتذوب حين أقف بالقرب من جهاز السونار، ويرقص قلبي فرحًا على نبضات قلبه القوية المضاعفة:

«بُم، بُم، بُم»

نبضات حياته الواعدة التي لم تبدأ بعد تظهر متموجة ومضيئة على الشاشة، تدوي في صدري. أبتسم بوهن، تلين ملامحي وأشد على يد زوجتي، أشعر أن نبضاتنا نحن الثلاثة تجري في شريان واحد. فرحة خفية تربط بيننا وأمل غامض بأنه سينجو.

أقف في ردهة المستشفى مدخنًا آخر سيجارة. ثاني علبة، ثالث علبة، لا أذكر. أقوم بتمارين على أنفي حتى لا يستنشق المزيد من

رائحة الديتول المنتشرة. ألعن في سري صور الإعلانات الكبيرة التي تحيط بي في كل ممر أذهب إليه: تبييض الأسنان، التخلص من الشعر الزائد، وداعًا للنظارة الطبية. يا لرائحة ندى الصباح حين كان يهبط حنونًا على أوراق الصفصاف فيغسلها، الندى في قريتي كانت له رائحة مسكرة وملمس دافئ رقيق؛ لكنه الآن بعيد، بعيد إلى درجة الألم. كل أشيائي الأولى أصبحت بعيدة وغائمة، مهزوزة في مرآة الوجود الذي لم يعد موجودًا، لا أعرف هل كانت النقطة الأولى أفضل أم آخر نقطة وصلت إليها؟!

من وراء الأبواب الموارية ألمح أَسِرة المستشفى، مرضى كثيرون يستلقون عليها في أوضاع هزلية. مذعورون من الموت، مستسلمون له. نساء لا أرى وجوههن يصدرن أنينًا خافتًا. مريض عجوز كان يسعل وهو يمر أمامي وعلى أذنه راديو بحجم الكف وعبد الوهاب يغني بصوتٍ خفيضٍ: «فين طريقك فين؟ بيروحوا له منين؟» بعد دقيقتين عاد وعبد الوهاب ما زال يغني الأغنية نفسها.

ممرضات أتعب السهر عيونهن يقفزن حولي في الممرات البيضاء مثل غزلان تسترخي في طرقات المستشفى. فلبينيات ومصريات وهنديات كلهن في زي أبيض موحد: حذاء خفيف، سروال قطني، بالطو، وغطاء رأس. كلهن كن يضعن أيديهن على بطونهن الممتلئة ثم يقفزن بعيدًا عني! إحداهن رفعت إصبعيها السبابة والوسطى في إشارة شبقية كي أفهم أن التدخين ممنوع.

طنين عميق في أذني. أُرخي جفني على عينين أجهدهما أرق ونوم متقطع. أنتبه كلما مرت ممرضة نحيلة ليست حاملاً وفي يدها كيس أسود ينز سائلاً غريبًا على حذائها الأبيض. أرفع جفني بتثاقل متطلعًا، أحسبه طفلي حيًا، طفلي عالقًا داخل الكيس يصرخ لكن لا أحد يسمع صراخه.

عصر السنجة

زارني بلال صاحبي ليلاً. طرق نافذة غرفتي التي لا يفصلها عن النهر سوى شارع ترابي ضيق.

سمعت صوته بالبحة الخشنة؛ لكنني عاودت النوم. بلال ميت منذ سنوات؛ فأثناء انتخابات مجلس الشعب ضربه بلطجي ضربة «سنجة» طلعت معها روحه.

أكيد رجع من قبره لكتابة يافطة ستة أمتار تأييدًا للمحافظ الجديد! فأعضاء الحزب الحاكم أشاعوا منذ أسبوع أن المحافظ سيزور القرية لافتتاح أول مخبز نصف آلي. لهذا السبب أعد كبراء القرية خلال الأيام الماضية عشرات العرائض والشكاوى لعرضها على سيادته أثناء الزيارة، لدرجة أن عم عبده البقاش وقف بعد العصر قدام الجامع الكبير؛ ثم خلع جلبابه وصاح وهو واقف بالسروال الداخلي:

«البلد كلها أنجنت وكتبت ضد بعضها فدان شكاوى للمحافظ»!

واربت النافذة فرأيته واقفًا كالعادة، وقد ثنى ذراعيه فوق بعضهما مستعرضًا عضلاته. لا طلب مني كتابة شكوى جديدة ولا يافطة تأييد للمحافظ بل أمرني أن أصحو في الفجر، وأستعد لمشوار مهم جدًا. الأمر سري للغاية وتم انتقاء عشرة شباب فدائيين على الفرازة ـ هكذا قال ـ من كل قرية على مستوى الجمهورية.

سألته وأنا أنبه نفسي كي أستيقظ أكثر:

«أنت بلال فعلاً؟»

وتحسست على رأسي موضع ضربة «السنجة» التي قتلته؛ فهز رأسه إيجابًا؛ ثم قال:

«المهم استعد للسفر على مصر»

«مصر.. مصر؟»

أضاف بحماس أن آلاف الشباب تم انتقاؤهم من كل المحافظات سيذهبون إلى الصالة المغطاة في إستاد القاهرة.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يطرق فيها بلال ـ بعد مصرعه ـ نافذة غرفتي، ويطلب مني طلبات سرية للغاية؛ فهو ـ رغم موته ـ ظل مولعًا بالعمل السياسي ولا يتأخر عن أي مهمة وطنية.

نحن كنا أصدقاء منذ الابتدائي؛ لكن بلال بجرأته أصبح أمين شباب الحزب على مستوى المركز، وأنا مجرد خطاط يكتب الشكاوى، ويرسم لوحات الجغرافيا للتلاميذ، وينسخ قصائد شوقي وحافظ بخط كوفي على ورق ملون.

المنصب الذي كان يشغله بلال صاحبي في الحزب الحاكم قد يبدو متواضعًا؛ لكنه بالنسبة إلى القرويين أمثالي يعطيه الحق في أن يجلس مزهوًا على قهوة الحاج نشأت ويضع ساقًا على ساق، ويشرب أيضًا على الحساب.

تعودنا أن نلتقي بعد صلاة العشاء على القهوة مثل غيرنا من الموظفين وطلاب الجامعة وأبناء المدرسين، الذين يعملون في السعودية والعراق والكويت. كل من يشعر بأهمية نفسه في القرية يجلس عليها، أما الصعاليك والأوباش فمكانهم الطبيعي غرزة «أبو ربيع».

لكن بصراحة في مرات قليلة كنا نفضل أنا وبلال غرزة «أبو ربيع» ندخن سيجارتي حشيش أو نطرقع زجاجتي بيرة على شرف أفلام ناهد شريف وشمس البارودي وشويكار.

بعد صلاة الفجر مباشرة التقينا في الملعب الرئيسي، عشرات الشباب جاءوا من بقية القرى التابعة للمركز، والتفوا وسط ضوء مغبش وباهت. ضباب أبيض كثيف يجعلنا لا نرى أبعد من أنوفنا. كلنا أخفينا أيدينا في جيوبنا بسبب لسعة البرد. بلال بشحمه ولحمه - بعد رجوعه من القبر - وقف أمامنا وهو يغطي رأسه بقطعة شاش. أفهمنا أن الأتوبيسات السياحية المكيفة ستقلنا إلى إستاد القاهرة مباشرة، ولأن الرحلة تستغرق أربع ساعات ومثلها في العودة، ستقدم وجبة غداء عبارة عن نصف فرخة مشوية وعلبة بيبسي.

سرت شائعة أن الحاج حامد الصفطاوي تاجر الحبوب والأعلاف المشهور تبرع بهذه الوجبات كلها؛ لكن بلال لم يؤكدها ولم ينفها.

نفس الموقف بكل تفاصيله حدث من قبل خمس أو ست مرات، بكل ما جرى فيه، كل الروائح والأصوات والأحاسيس وما دار في عقلي خلال السفر. أعلم طبعًا المهمة السرية، ولماذا سنسافر إلى مصر، لأنني ببساطة خرجت مع بلال في المهمة نفسها أكثر من مرة، قبل موته، وبعد موته أيضًا. وأستطيع أن أحكي بالتفاصيل عن كل المفاجآت التي سنمر بها، وهي لا تعتبر مفاجآت لأنني مررت بها. كأن عطلاً أصاب شريط الزمن فأعادني إلى لحظة سبق أن تجاوزتها أكثر من مرة في السنوات الماضية؛ لكنها تعود مرة أخرى فأوهم نفسي بأن أعيش فيها كأنها لحظة جديدة. أو كأن قوة غامضة تعيدني إلى لحظة قديمة، كي أعيشها من جديد مرة ثانية وثالثة.

ها هو بلال أمامي حي يرزق، رغم أنه يعلم طبعًا أنه لقي مصرعه في انتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٩٥، وهو يحاول أن يفدي بجسده الرياضي مخبرًا سريًا. رأيته بأم عيني والدم يتفجر كالنافورة من رأسه؛ وهو يحبس الدم ضاغطًا بكفيه، ويصيح في وجوهنا باللغة العربية الفصحى كأنه يؤدي مشهدًا في مسرحية:

«لن تؤثر.. لن تؤثر»!

كان الفزع من الموت على وجوهنا نحن، وليس في عينيه المتشبثتين بالحياة إلى أقصى ما تسمح مقاومته للسقوط. سبحان الله، هكذا بكل بساطة أودت ضربة سنجة طائشة بحياة ابن الحزب البار، مع أن المرشحين كلهم كانوا من رجال الحزب البارين أيضًا!

بعد ربع ساعة بالضبط ستصل ستة أتوبيسات سياحية زرقاء، وبعدها ننطلق من أمام مديرية الشباب والرياضة. وقد تم توزيع «تي شيرتات» بيضاء على كل واحد فينا. ليس مطلوبًا منا سوى ارتداء «التيشيرت» الأبيض لنظهر في صورة جماعية معبرة على شاشة التليفزيون. وبمجرد أن ركب كل منا في مقعده داخل الأتوبيس، خلعنا القمصان ووضعناها بعناية في أكياس بلاستيك؛ ثم ارتدينا «التيشيرتات» في حركة جماعية كأننا في غرفة تغيير ملابس قبل مباراة كرة القدم ولسنا في أتوبيس سياحي، وانطلق أحدنا بصوت عريضٍ يتلو دعاء السفر، ونحن نردد خلفه: «واطو عنا بعده».

زميلنا هذا الذي تعودنا أن يتلو علينا دعاء السفر كلما خرجنا في مثل هذه المهام، كان في الأصل منتميًا إلى جماعة الإخوان، وبعد استدعائه أكثر من مرة في مباحث أمن الدولة على كورنيش الأعصر في دمياط، استخرج كارنيه الحزب وقطع علاقته بالإخوة. هو أيضًا لقي مصرعه أمام محل عمر أفندي، وسبحان الله! بضربة سنجة أيضًا؛ لكن أثناء استفتاء عام ١٩٩٣ طبعًا هذا لم يمنعه من المشاركة معنا في جميع المهام التالية؛ لكن انتظامه الحزبي معنا ـ

حتى بعد موته ـ لم يفده كثيرًا لأن التقارير الأمنية ظلت دائمًا ترجح أنه لم يقطع علاقته بالجماعة المحظورة!

كان الطريق ترابيًا ملتويًا، تتقاطع عليه من فوق رءوسنا، يافطات قماش عريضة، معلقة على أعمدة الإنارة وأشجار الكافور. تدعو لانتخاب المرشح رمز الجمل ورمز الهلال، وعليها عبارة: «انتخبوا الرجل صاحب الأيادي البيضاء»!

هذه هي الانتخابات المشئومة التي ذهب بلال ضحيتها، ومعه خمسة من شباب الإخوان أصيبوا بعاهات مختلفة منها قلع العين وقطع فروة الرأس، لولا أن دبر لهم أحد الموسرين جزاه الله خيرًا ألفي دولار لكل منهم للهجرة إلى إيطاليا بالاتفاق مع سمسار من عزبة البرلس قام بتخزينهم في إحدى السفن أسبوعين؛ ثم انقطعت أخبارهم.

كنت أطالع بصعوبة صور المرشحين وملصقاتهم الزرقاء الباهتة التي لطخت حيطان الجمعية الزراعية، ومركز الشباب، وجمعية الشبان المسلمين، والوحدة المحلية والوحدة البيطرية... كلها وجوه سمينة وشوارب كثة، هذا له عاهة في الخد وزميله الآخر عينه حولاء، والثالث براطمه غليظة مقلوبة إلى الخارج. كيف يكون مثل هؤلاء من أصحاب الأيادي البيضاء؟! كل المرشحين الذين تُعلق لهم اللافتات في مواسم الانتخابات، على الشاكلة نفسها، كأن هناك مصنعًا سريًا ينتج هؤلاء المرشحين بمواصفات غير مريحة للعين! وجوههم لا تدل سوى على تجار مخدرات أو قطاع طرق على شاكلة

الذين يظهرون في أفلام فريد شوقي ومحمود المليجي؛ لكن طبعًا المهم أعمالهم وإنجازاتهم وليس صورهم وأشكالهم.

مع إشراقة الشمس كنا قد غادرنا مديرية الشباب والرياضة، وأصبحنا على طريق القاهرة ـ دمياط، كنت أتمتم بآية الكرسي وأدعية مرتبكة تأتي عفو الخاطر، وكان صوت محمد قنديل عاليًا في الراديو يغني «أبو سمرة السكرة».

أكثر ما كان يضايقني مسألة «الأيادي البيضاء» هذه، التي تتكرر في كل يافطة على نواصي القرى التالية! كيف؟ هل يعقل أن مرشحًا واحدًا له «أياد»؟ وكيف تكون «بيضاء»؟! كأنه عبد المنعم إبراهيم في فيلم «طاقية الإخفاء» يرش على كل يد «بودرة العفريت» فتصبح بيضاء؛ ثم يطلقها تدور وحدها منفصلة عن جسده دون أن يراها أحد، تفتح خزينة البوسطة تسرق الخطابات الآتية من العراق وفلوس المعاشات؛ ثم تعود الأيادي كلها بيضاء كما كانت وتلتصق بجسد المرشح فلا يشعر بها أحد!

في هذه اللحظة بالضبط قلت لبلال إن كلمة «أيادي» غير صحيحة لأن ربنا خلق لكل إنسان يدين اثنتين فقط، حتى لو كان من نواب مجلس الشعب، وبلال بدوره اقترح تقديم طلب للحزب لتصحيح الجملة إلى: «انتخبوا صاحب اليدين البيضاوين»! بلال من الشخصيات التي لا تعرف مزاحها من جدها، ولا موتها من حياتها.

بعد ساعة من الآن، سنتوقف أمام مزلقان سكة حديد المنصورة، وستكون هناك لافتة كهربائية عملاقة تتغير صورها لإعلانات عن

مستشفى استثمارية: تبييض الأسنان، التخلص من الشعر الزائد، وداعًا للنظارة الطبية، وقبل أن يُفتح لنا المزلقان سيمر من أمامنا قطار أبيض. كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها قطارًا مطليًا باللون الأبيض. كل من كانوا معي في الأتوبيس استغربوا مثلي من لون القطار!

صحيح أنني أعيش اللحظة نفسها والحدث نفسه، للمرة الرابعة أو الخامسة؛ لكن كان لدي شعور غامض بأن بعض وجوه الشباب التي معي في الأتوبيس تغيرت ولا تشبه تلك الوجوه التي كانت معنا عندما عشت الموقف في المرة الأولى، باستثناء عم محمد خليل سائق الأتوبيس فهو كما هو.. حتى عندما مر القطار الأبيض حك شاربه الرفيع المحفوف وعلق بنفس التعليق بأن القطار الأبيض ليس للغلابة أمثالنا بل مخصص للسياح فقط؛ لكنه ما زال تحت التجريب!

قبل دخولنا مركز ميت غمر، سيهبط بلال ويتصل من هاتف في دكان بقالة بشخصية مهمة، وسيتكرر ذلك طوال الرحلة، لأنه كان يتلقى التعليمات أولاً بأول؛ ثم سيصعد بعدها ويبتسم لنا وهو يخبرنا أنه بعد أداء المهمة، وأثناء العودة سيمر مندوب من مركز الشباب يوزع على كل من شارك عشرة جنيهات من غير إيصال استلام ولا إمضاء ولا أي شيء، مكافأة من مديرية الشباب والرياضة. ما عليك إلا أن تستلم الورقة أم مئذنة، وتضعها في جيبك، ما إن قال ذلك حتى صفق له الجميع وهللوا: «بالروح بالدم نفديك يا بلال»!

الموقف كله وقع مثلما حدث في المرة الأولى، والاستثناء الوحيد أن المكافأة التي أعلن عنها بلال زادت إلى عشرين جنيهًا، أما وجبة النصف فرخة؛ فظلت كما هي، وأيضًا صفق له الجميع وهللوا: «بالروح بالدم نفديك يا بلال»!

بلال محبوب فعلاً، ليس لخياله الواسع وشهيته المفتوحة على الطعام والنساء؛ بل لأنه لا يغلق بابه في وجه مريض أو محتاج، يذهب بهؤلاء إلى أكبر مسئول في الحزب دون تردد. أقسم لي بحق صلاته ـ لديه علامة صلاة في جبينه أكبر من علامة الصلاة التي في جبيني ـ أنه لا يأخذ عمولة عن خدمة الناس كما يفعل بعض زملائه. ليس كل كلامه كذبًا، فهو يستطيع بجسده الرياضي وصوته الحنجوري أن يفتك بأي مسئول لا يلبي طلباته، وفي النهاية طلبات الفلاحين تافهة مثل عيشتهم.

كنا على الطريق الزراعي ورغم طبقة الضباب الخفيفة رأينا أتوبيسات أخرى تحاذينا وتسبقنا وبها شباب يرتدون نفس ال «تي شيرتات» البيضاء؛ لكن ما استغربته حقًا ونحن نعيش الحدث للمرة الرابعة على ما أذكر، ظهور هذا القطيع الكبير من الحمير البيض تقوده عجوز بدوية بملابسها الحمراء المزركشة. كانت تعوق السير على الطريق بقطيعها، ولا تبالي بالأتوبيسات السياحية التي تلاحقت وراء بعضها.

مع بطء سير الأتوبيسات تشاغلت بتصفح الجريدة، وهي الجريدة نفسها التي كانت توزع علينا مجانًا في كل المرات السابقة،

وكانت الأخبار متشابهة من عينة: مدير أمن الجيزة ينفي شائعة خطف صحفي كبير وتعذيبه؛ ثم تركه عاريًا في الصحراء، وكيل نيابة قصر النيل يخلي سبيل ضابط أمن دولة اتهم بضرب أحد القضاة بالحذاء أمام دار القضاء العالي، بعد تصالح الطرفين، ورئيس التحرير يدحض في عموده اليومي أن يكون مصرع القاضي الذي حكم بإعادة أرض «مدينتي» إلى الدولة، ينطوي على شبهة جنائية مؤكدًا أنه مات في حادث سيارة قضاء وقدرًا متهمًا المعارضة بالصيد في الماء العكر، مع أن القاضي لقي مصرعه على طريق صحراوي ليس فيه ماء! أيضًا استوقفني خبر عن انتحار محاسب في العقد الرابع بعد هبوط أسهمه في البورصة لأنني قرأت الخبر نفسه من عامين وبالتفاصيل نفسها، وإشعال صاحب مطعم النار في نفسه أمام مبنى مجلس الشعب، ومرفق بالخبر صورة تقرير طبي يفيد أنه مختل عقليًا وأهله تبرأوا منه... أكثر ما لفت انتباهي في جريدة الحزب هذه التفاصيل الدقيقة عن عملية اغتصاب جماعي لفتاة معاقة في محطة الأتوبيس في العتبة؛ كأن الصحفي كان مع المغتصبين، بالصوت والصورة!

استأنفنا السير، بعد انسحاب قطيع الحمير البيض من نهر الطريق.

لكن أعاقتنا عند مدخل إحدى القرى خناقة كبيرة، كان علينا أن نسير بهدوء بأتوبيسنا الأزرق السياحي وسط أجساد الفلاحين الحفاة وزوجاتهم وبناتهم ورائحة اللبن والروث المنبعثة منهم.

في هذه اللحظة بالضبط سيهبط بلال وبجسده الرياضي و«كارنيه» الحزب سوف يقنع الفلاحين بأنه ضابط شرطة، ويحذرهم من تعطيل الأتوبيس الذاهب في مهمة وطنية، وسنسمعه بوضوح لأننا مع هبوطه فتحنا نوافذ الأتوبيس، وأخرجنا رءوسنا وهو يكرر بصوتٍ مرتفعٍ:

«فاهمين يا أوباش! مهمة.. وطنية»!

سوف يستغل هبوطه ويتصل مرة أخرى بالشخصية المهمة التي يتلقى منها التعليمات أولاً بأول. طبعًا لم يتوقف صياح النساء، والرجال كانوا يزعقون على بعضهم البعض فجأة، وأثناء اختراق الأتوبيس وسط الحشد ببطء شديد تفاجأنا بامرأة «عفية» كانت ترتدي جلبابًا أسود وهي تدفع شابًا بقسوة في عمود الإنارة. كانت تدفعه والشاب مستسلم لها كأنه زلعة مش ترجها بيديها. من بعيد لمحنا رجلاً عجوزًا يرتدي عباءة بيضاء قادمًا فوق فرس بيضاء نحو الخناقة. خطر في بالي أنه العمدة أو شيخ البلد.

أشجار السرو والكافور كانت تجري إلى الخلف بامتداد النهر. يفصل بينها أحيانًا سور منيع من الغاب الذي انتشر بشراسة وحجب رؤية مياه النهر. على مداخل قرى كثيرة كنا نشاهد منحدرًا واسعًا مبلطًا بصخور كبيرة كستها طبقة خضراء علقت بها الطحالب، وفوقها الفلاحات وبناتهن يغسلن الملابس والأواني في الماء الجاري. كن يرفعن أطراف الجلابيب إلى ما فوق الوركين؛ فكانت سراويلهن الداخلية الملونة تظهر مع انحنائهن إلى الماء.

أرداف ثقيلة مقلوبة باتجاه السماء، سيقان وسمانات بيضاء مدورة. كان المنظر مباغتًا تحت شمس الصباح، ويستحق أن نفتح نوافذ الأتوبيس، ونهتف ونصفر لهن في مرح طفولي، وإحداهن رفعت رأسها نحونا وابتسمت وهي تلوح لنا.

رغم تكرار المشهد أمام أكثر من قرية تالية؛ لكنه لم يفقد إثارته في كل مرة قمنا فيها بهذه المهمة. شمس الصباح والنهر والسيقان «العفية». كنت منجذبًا إلى السيدات لأن سيقانهن أكثر امتلاء، وأيضًا لا يتصنعن الخجل مثل البنات الصغيرات، بل ينحنين كاشفات عن كل ما يملكن بتهتك وبلا استحياء.

طوال الطريق لم تفارق ذهني حكاية «الأيادي البيضاء» هذه ولا «السيقان البيضاء» المغسولة التي رأيتها تتلألأ مع أشعة شمس الصباح، كانت الشمس ذهبية كبيرة، ارتفعت من وراء الأشجار، وكان هناك صف طويل من أشجار الصفصاف التي تنتشر على مسافات متساوية.

بين كل صفصافة وصفصافة كانت هناك فلاحة مكشوفة الوركين تنحني فوق صخرة، ومؤخرتها مقلوبة في اتجاهنا. لكنها لا تغسل الأواني وملابس عيالها، بل تلتقط بيضة كبيرة الحجم من قصعة في متناول يدها؛ ثم تمررها من بين وركيها العاريتين وتدحرجها في النهر ببطء.

كلما قطعنا مسافة كانت تظهر لنا امرأة محنية تدحرج بيضًا في النهر، من بين وركيها، هذا المشهد تحديدًا ليس من المشاهد المنتظمة في كل المرات التي قمنا فيها بهذه الرحلة من قبل.

بعد ما تجاوزنا كوبري بنها تغيرت المناظر مع ظهور مصانع وشركات وأسوار على مسافات متقاربة.

ستكون المفاجأة التي هي في الحقيقة ليست مفاجأة لأنها حدثت معنا أكثر من مرة، عندما يتلقى بلال آخر اتصال من الشخصية المهمة التي ستطالبه بالعودة بالأتوبيسات الستة من حيث أتى.

في تلك اللحظة صعد بلال واجمًا، وأشار علينا بالصمت ثم ألقى بالخبر المفزع دفعة واحدة، وقال إن إرهابيين اغتالوا الريس وتم تعيين وزير الدفاع بدلاً منه رئيسًا للبلاد. على عكس ما توقعه بلال منا في مثل هذا الموقف المهيب، هلل بعضنا للخبر بشكل طفولي! ولا يبدو أن بلال كان منزعجًا بشدة لأنه اكتفى بالتحسيس على قطعة الشاش التي فوق رأسه.

وكما حدث في المرة الأولى بالضبط، بلال رفض التعليمات بالعودة من حيث أتينا؛ فليس هو من يتراجع عن مهمة وطنية مثل هذه. حتمًا هناك فوضى وانفلات أمني، ولا نعلم ما هو تأثير ظهورنا على الناس، ونحن نرتدي تيشرتات عليها صورة الريس المقتول!

بلال كان واعيًا للورطة، واتصل في الطريق بشخصية مهمة، غير الشخصية المهمة التي كان ينسق معها؛ ثم اتجه بنا فجأة إلى أحد مصانع الملابس في شبرا الخيمة؛ فاستبدلنا «التيشيرتات» التي عليها صورة الريس بأخرى عليها صورة أبي الهول.

وتغير مسار الرحلة من الصالة المغطاة في إستاد القاهرة إلى قاعة المؤتمرات في مدينة نصر للدواعي الأمنية.

بعدما دخلنا في صفوف منتظمة إلى القاعة مكثنا ساعتين لا نفعل أي شيء، بانتظار اكتمال الحشود، كما أخبرونا، وهكذا ضاعت علينا صلاة الجمعة، وكانت ضاعت علينا في المرات السابقة أيضًا.

جلسنا داخل القاعة الكبيرة بأدب مفتعل. أمواج وكتل بشرية. الجميع يرتدي تيشرتات بيضاء. رحتُ أتأمل أيادي المسئولين الذين يحومون حولنا بابتسام وأدب. يتحركون بخطوات محسوبة هنا وهناك. أعرف أنهم مسئولون كبار جدًا لأنني أشاهدهم كثيرًا في التليفزيون. لم يخطر على بالي أنني سأراهم في يوم من الأيام وجهًا لوجه، ولا يفصلني عنهم سوى خطوة أو خطوتين. كانوا يختفون سريعًا ويتركون عطرهم عالقًا في الهواء. يتابعون من بعيد بطرف أعينهم تفاصيل الصورة الكلية. أحدهم كان محاطًا بجنود أمن مركزي في ملابس سوداء وأحذية طويلة تدق الأرض على وقع أغنية شادية التي ترن في أرجاء القاعة: «أدخلوها آمنين». لم أعرف إذا كان هذا المسئول من ذوي «الأيادي البيضاء» أم لا. بالكاد من بين ثقوب الحائط البشري الأسود، لمحت رأسه الأصلع لامعًا في الضوء ومحاطًا بالجنود.

كل مسئول مر علينا كان واجمًا، ويختفي سريعًا، وكنت أتأمل يده فأجدها يدًا عادية، سمينة وقصيرة مثله، أو مشعرة منفرة كأنها يد شمبانزي يلمع فيها خاتم ذهبي.

في الساعة الرابعة عصرًا سمعنا جميعًا صوت المذيعة هناء السمري؛ وهي معروفة بحماسها الوطني في كل ما يتعلق بالريس، راحت تزف إلينا البشرى بنجاة الريس من حادث الاغتيال الفظيع جدًا، وعليه فإن وزير الدفاع عاد وزيرًا للدفاع، وقالت إن ريسنا حبيب الملايين سيكون بيننا خلال ساعة فقط لنهنئه مع جموع طوائف الشعب والمواطنين الشرفاء بنجاته من الاغتيال وختمت كلامها بالقول: «سلمت لمصر يا ريس وسلمت لك مصر».

المشهد نفسه تكرر كما هو أربع أو خمس مرات بعد ذلك، وبالسيناريو نفسه نُبلغ فجأة بإلغاء المهمة قبل دخول حي شبرا لأن الريس تعرض للاغتيال في فرنسا ومرة في بورسعيد ومرة في مطار سيدي براني، وفورًا يعين وزير الدفاع رئيسًا جديدًا؛ ثم يتضح أن الريس نجا وعاد بسلامة الله إلى أرض الوطن، وعندما جئنا لمبايعته بمناسبة فوز مصر ببطولة العالم في كرة اليد حدثت أيضًا محاولة اغتيال وظهر المذيع لامع الشعر مفيد فوزي بنبراته المسرحية، وردد نفس العبارة التي رددتها هناء السمري: «سلمت لمصر يا ريس وسلمت لك مصر».

أحد هؤلاء من ذوي الأيادي البيضاء المشعرة جاء نحو مجموعتنا مهرولاً وطلب منا إخلاء المدرج فورًا، وعندما تدخل بلال لمعرفة السبب، وهل هناك ترتيب أمني معين؟ أخبره وهو غاضب جدًا أننا المجموعة الوحيدة التي طبعت صورة أبي الهول على التيشرتات بدلاً من صورة الريس.

من الطبيعي أن ألوم «بلال» على حماقته لأننا بكل بساطة تركنا التيشرتات التي عليها صور الريس في مصنع شبرا الخيمة! ولأنه كان لا بد أن نتعلم مما حدث لنا في المرات السابقة عندما أخرجنا نفس هذا المسئول من نفس هذه القاعة لنفس السبب، وهو أننا طبعنا صورة أبي الهول بدل صورة الريس.

هبطنا على عجل من مخرج جانبي، لستُ متأكدًا إذا ما كان الريس ظهر في المقصورة الرئيسية ولوح لدقائق أم لا؛ لكنني لاحظت أن كاميرات التليفزيون تحركت فجأة على روافع ضخمة لالتقاط صورة لهذا التأييد الحاشد بأجساد آلاف الشباب الذين بدوا كنمل أبيض يتراص في صفوف منتظمة تصنع دائرة باتساع القاعة. بالتأكيد كان الريس في هذه اللحظة يلوح لآلاف الشباب وإلا ما سبب هذا التصفيق المدوي والهتاف والصفير الذي كنا نسمعه من خلف ظهورنا ونحن نغادر؟! وكانت سماء القاعة مزينة بآلاف الكرات البيضاء الصغيرة التي تتطاير هنا وهناك. أذكر أنه خلال المبايعة الثانية ونحن نغادر بسرعة ونهبط الدرج لمحت خلف الريس فيما يشبه النظرة الأخيرة البابا شنودة والشيخ طنطاوي شيخ الأزهر والشيخ الشعراوي والشيخ الغزالي.

مشاعر مختلطة من الخجل والارتباك والسعادة أن المهمة انتهت على خير، وطمأننا بلال بأن الأعمال بالنيات وأضاف مازحًا: عمومًا الريس لوح لنا وشكرنا قبل ما نخرج! طمأننا أيضًا على أن الاتفاق كما هو من دون أي تغيير، وسيحصل كل فرد على عشرين جنيهًا كاملة لأننا لا نتحمل غلطة عدم وجود صورة الريس على صدورنا.

مع أذان العشاء عدنا إلى بيوتنا في القرى البعيدة التي أتينا منها، واعتبرته يوم عمل بأجر، غير الوجبة المجانية التي يشكر عليها الحاج حامد الصفطاوي، إضافة إلى أنني بعت أيضًا «التيشيرت» الأبيض الخالي من صورة الريس بعشرة جنيهات ـ مع أنه قطن ناعم غزل المحلة ـ أكثر من مرة. في المرة الأولى بعته بعد مساومة طويلة لشاب ساذج من قرية مجاورة اسمه علي، كان يجلس إلى جواري ويضحك كلما لمح إوزة تعرج بجوار الأتوبيس، كأنه المرة الأولى يسافر خارج قريتهم! لم أره في مهام المبايعة سوى هذه المرة فقط، لكن أحد زملائه من قريته قال لي إن المليجي أمين الشرطة سقط عليه وهو مع امرأته (امرأة المليجي) وضربه بسنجة في موضع حساس من جسده، وفي المرة التالية بعت أيضًا نفس «التيشيرت» الأبيض الخالي من صورة الريس بعشرة جنيهات لشاب لا أتذكر اسمه، ولستُ متأكدًا هل هو من الأموات الذين يعودون بانتظام لمبايعة الريس والمشاركة بنعم في استفتاءات الرئاسة، أم هو من الأحياء الذي يشاركون في مثل هذه المهام السرية بلا انتظام ولا قناعة حقيقية!

اتفقت مع بلال، كما حدث في المرات السابقة، أن نلتقي بعد ساعتين لأعزمه على بيرة بثمن «التيشيرت» في «غرزة أبو ربيع» لأنها عالية ولها سور يمنع عنا تطفل عيون المارة على عكس قهوة الحاج نشأت المكشوفة على الشارع الرئيسي، وأثناء جلوسي في غرزة أبو ربيع في انتظار بلال مر عليَّ «شوكت الحرامي» ـ لا

أعرف ماذا سرق بالضبط؛ لكن هذا لقبه حتى بعد أن أصبح أمين التثقيف في الحزب ـ وهتف ساخرًا: «إنت لسه بتسكر لوحدك، الله يرحم صاحبك أبو سنجة لا تؤثر!»*

(*) للأمانة والتاريخ لم يصدر وزير الداخلية أي بيان يتعلق باغتيال بلال صاحبي بسنجة، رغم أنه كان عضوًا في الحزب الوطني مثله مثل الريس، صحيح هذا رئيس الحزب وذاك مجرد أمين الشباب في مركز كفر سعد؛ لكنهما في النهاية زميلان في الحزب نفسه، وبالعكس الريس هرب في كل محاولة اغتيال ؛لكن بلال واجه السنجة ببسالة وصاح صيحته الخالدة: «لا تؤثر.. لا تؤثر»!.

الطَوَّاف وسارق النحاس

اندفع الشيخ حسن وسط ثلاثين رجلاً يشاهدون مباراة الأهلي والإسماعيلي في قهوة الحاج نشأت المطلة على النهر. حجب بجسده أرجل اللاعبين التي تجري على الشاشة. في عينيه لمعة بريق غامض، وعلى شفتيه المرتجفتين زبد خفيف.

الحاج حامد الصفطاوي مد يده يزيحه برفق؛ لكن الشيخ حسن زعق بصوته الأجش ومد سبابته في وجهه حتى كاد أن يخرم عينه:

«إنت اللي سرقت النحاس»!

في لمح البصر، بسط كفه التي تشبه المذراة، وصفعه صفعة معتبرة حمرت صدغه؛ فتكهرب الجو في القهوة كلها.

الحاج حامد نظر مبهوتًا والشرر يطق في عينيه. لولا الأيادي التي اندفعت في لحظة واحدة ربما قتله بكعب زجاجة البيبسي الفارغة.

كل من كانوا في القهوة في هذه اللحظة التاريخية (على الأقل بالنسبة إلى قرويين سذج ليست لديهم أصلاً لحظات تاريخية)

نسوا أحداث المباراة وقهقهوا في تواطؤ وهم يستعيدون ما حدث، ويطالعون الحاج حامد، ينصرف مرتبكًا يتحسس خده المحمر، ويدفع بيده أحد الكراسي أرضًا.

الحاج حامد خرج منفعلاً من القهوة المجاورة للمسجد الكبير واتجه ـ حسب رواية بلال المليجي ـ إلى دكان البقالة الرئيسي الذي يملكه في سُرة البلد. يتدحرج على الطريق بجسده القصير الضخم وكرشه المنتفخ تحت الجلباب مثل برميل الزيت. صوته سريع وحاد وهو يسلم سلامًا مبتورًا على من يقابله.

والشيخ حسن مشى في شوارع البلد مختالاً كالطاووس. خطواته قوية مندفعة. يرتفع إلى أعلى قليلاً كأنه يهم بالطيران، وكان يرتدي على اللحم جلبابًا رماديًا مهلهلاً.

خبر الصفعة المُعتبرة وصل إلى عيال الحاج حامد وصبيانه عن طريق نعيمة العمشة لما قابلتهم أمام سور المستشفى المطلي بالجير الأبيض. كانوا يطبعون على السور الأبيض إعلانات عن أحدث مشاريع الحاج حامد الصفطاوي: محل أحذية وماكينة طحين وكوافير للسيدات.

الكينج (هذا اسم الشهرة) ابن الحاج حامد رمى فرشاة الدهان وأقسم بشرف نعيمة العمشة (رغم أن نعيمة آخر امرأة في القرية يمكن أن يكون لها شرف) أقسم الكينج أن يمسح الأرض السبخة بالشيخ حسن؛ فمثل هذه الصفعة حتى ولو من مخبول تضر بهيبة الحاج وسمعته كعضو في المجلس القروي، والوحيد صاحب رخصة توزيع الشاي والسكر على الفلاحين ببطاقات التموين.

ولما انصرفت نعيمة العمشة، باغتهم الشيخ حسن الذي لا يفهم كلمة واحدة مما يكتبون على السور المطلي بالأبيض؛ لكن الجميع يعلم أنه يُستثار من انتهاك البياض، تبدأ الحالة بنظرات زائغة وإحمرار عينيه، وبعدها يهجم الشيخ حسن كالثور على من يلطخ البياض حتى لو كان الكينج ابن الحاج حامد. راح يلطشه بكفيه كيفما اتفق. أصابعه غليظة مثل أصابع الكفتة تُعلِّم مباشرة على الوجه؛ ثم انحنى على الأرض يلتقط ما يصادفه من حجارة صغيرة يقذفه بها ويصيح:

«تعال يا ابن الكلب، إنت اللي سرقت النحاس»!

صفعتان في يوم واحد. لَمن؟ للحاج حامد الصفطاوي نفسه ولابنه البكري الكينج! حدث تاريخي لن تنساه البلدة أبدًا. ومِن من؟! من الشيخ حسن الذي لا يعرف أحد أصله من فصله، ولا بلده التي يلعنها الحاج حامد صباح مساء! (خبر الصفعتين نقله أحد صبيان الحاج حامد إلى رفاعي الحلاق، وأضاف عليه إن الشيخ حسن توعد «إيحه» الابن الثاني للحاج حامد بالصفعة الثالثة؛ لكن هذه الرواية لم يؤكدها أحد)

لما وصل الحاج حامد محمر الخد إلى دكان البقالة الرئيسي الذي يملكه في سُرة البلد، كان هناك عشرة زبائن في انتظاره ببطاقات التموين العرقانة في أيديهم. أحدهم تملقه قائلاً: مبروك الدوري للأهلي يا حاج! لكنه ما إن فتح الدكان حتى انشقت الأرض أمامه عن الشيخ حسن بلحيته الشهباء النافرة، وشاربه غير المشذب

الذي يكاد أن يخفي شفتيه الرقيقتين. وجهه قمحي مستطيل قليلاً، ودائمًا يبدو محمر الخدين. شعره الناعم الطويل يجعله أشبه بالغجر. نظر إليه بكبرياء وصاح:

«واد يا حامض»!

ابتسم الحاج ابتسامته الصفراء؛ كأنه لم يصفعه منذ ساعة! ثم نفحه أمام الزبائن قطعة بسبوسة مجانًا:

«كُل وادعي لنا يا شيخ حسن».

بحلق فيه وصد يده بقطعة البسبوسة:

«أنت اللي سرقت النحاس»!

حسب شهادة فكري التمرجي فإن عيال الحاج حامد وصبيانه لموا علب الدهان والدلاء سريعًا، وأعدوا للشيخ حسن كمينًا في طريق عودته أمام بيت الحاج حامد نفسه، بأدواره الأربعة. (في هذا الوقت كان أعلى بيت في القرية كلها. بيت العمدة نفسه كان من ثلاثة أدوار فقط) رسم عيال الحاج حامد وصبيانه خطًا محفورًا في التراب بعرض الشارع؛ فالجميع يعلم أن أكثر ما يضايق الشيخ حسن انتهاك البياض وأن يرسم له أحد خطًا يحدد خطوته أو يفكر في الاستيلاء على ما يملكه حتى لو كان علبة سردين فارغة يحتفظ بها في جيبه. كان هذا الخط كافيًا كي تشتعل معركة غير متوقعة. شق الشيخ حسن جلبابه والزبد غطى شاربه وشفتيه وهو يصيح كالجمل الموتور، يومها حطم على الأقل زجاج ثلاث نوافذ قبل أن

تخرج زوجة الحاج حامد الشابة غاضبة وهي تزعق. (كان الحاج حامد جلبها من ضواحي الجيزة قبل عامين، وفرض عليها نوم القيلولة حتى تسهر له بالليل، وهي اشتكت له مرارًا أن ضراطه لن يفيدها في شيء إذا أراد أن تنجب له ابنه السابع).

راحت تلعن اليوم الذي رأت فيه وجه شيخ النحس هذا، وتلعن البلد التي رمته هنا؛ لكن لا الحاج حامد نفسه ولا زوجته ولا أولاده ولا صبيانه؛ يمكن أن يهزوا شعرة في شارب الشيخ حسن الذي قفز على رصيف الدار؛ ثم فوق صدر الكينج وإيحه معًا:

«يا ابن الكلب أنت وهو، إنتوا اللي سرقتوا النحاس»

بعد واقعة الصفعتين التاريخيتين نشرت نعيمة العمشة أقوى إشاعة عرفتها القرية في آخر عشر سنوات، وقالت إن الشيخ حسن سيأتي يوم الجمعة بعد صلاة العشاء ويذبح الحاج حامد من رقبته في عتمة الليل. الناس طبعًا صدقت الإشاعة لأنه اختفى من أسبوعين. (أهل القرية كانوا متأثرين بفيلم «عنتر ولبلب» لكثرة ما شاهدوه على القناة الأولى، رغم أنهم جميعًا أجبن من أن يقتلوا صرصارًا! فآخر جريمة قتل وقعت في القرية قبل عشرين سنة لما خدرت انتصار بنت الخردواتي عشيقها عربجي الحنطور وذبحته بمطواة قرن غزال فوق سطح الوحدة الصحية، ودفنته في برميل أسمنت؛ لكن الناس يصدقون أي إشاعة؛ فتصديق الإشاعات لن يكلفهم شيئًا، ولا داعي للتفكير كيف سيأتي الشيخ

حسن ويذبح الحاج حامد ليلاً وهو لا يظهر إلا نهارًا مهما كان الجو حارًا أو ممطرًا؟!)

وتندر زغلول الفوال على نعيمة العمشة: معقول الشيخ حسن يسن السكينة من أسبوعين! ولما حاول أحد صبيان الحاج حامد نشر إشاعة مضادة بأن مأمور المركز قبض على الشيخ حسن لأنه أساء لأسياده، وأرسله إلى مستشفى المجاذيب في مصر، لم يصدقه أحد.

والناس في غيابه قالت عنه كل الكلام، قالوا إنه غريب طواف، بلاد تحط وبلاد تشيل، وكائنًا من كان لو بحث عنه بإبرة لن يعثر عليه إلا حين يظهر وحده يعلو ويهبط كالموجة على الطريق.

وقالوا لما القمر يكتمل بدرًا يصاب الشيخ حسن بلوثة غريبة، يهرول في البلاد من أولها إلى آخرها. يشتم ويصيح صياح مجانين ثم يلقي بنفسه في النهر بكامل ملابسه.

والرفاعي الحلاق ـ كما يحكون ـ جمع أصحابه على المصطبة قدام دكانه، وقال لهم إنه عارف سر الشيخ حسن وبلده الأصلية. وحكى لهم أنه كان في شبابه زين العاقلين، وكان يدرس في كلية الطب، ويربي عشرين ملكة في «المنحل» على طرف غيط البرسيم في أرضهم. وفي يوم عند الغروب دخل أخوه الكبير المنحل، كتفه وعلقه فوق النخلة وتركه في برد طوبة سبع ليال.

طبعًا أصحاب الرفاعي سألوه عن السبب؛ فقال لهم إنه كان يكره الشيخ حسن كره العمى، ودبر له موتة غريبة فوق النخلة

ليستولي على ورثه نحو عشرين فدان بحري. ومن كثرة ما بص الشيخ حسن للقمر وهو بدر التمام في عز الشتاء، أصابته لوثة البياض. وأفتى الرفاعي من عنده أن شقيقه الأكبر لو طلب منه ورثه بطريقة ودية كان الشيخ حسن تنازل عنه بطيب خاطر. وسبحان الله بعد أذان الفجر لاح للشيخ حسن عجوز أسمر، وجهه نور على نور. قام العجوز وفك قيده وأخذه خلفه على فرس. وفي بلد بعيدة جدًا عن بلده قال له: انزل هنا. من يومها ـ حسب حكاية الرفاعي الحلاق لأصحابه السبعة ـ والشيخ حسن لا ينام إلا في الغيطان مثل ذئب البراري، وحده في الليل يستلقي على الأرض دون فراش أو غطاء تحت نخلة مثل تلك التي ربطه فوقها أخوه الأكبر.

ولما فات أسبوع بعد الأسبوعين زغلول الفوال سأل عزيزة العمشة: «الشيخ حسن سن السكينة، ولا السكينة جرحته؟!» لكن في اليوم نفسه ظهر الشيخ حسن حافيًا كعادته، تحت شمس الضحى، يدوس الحصى ولا ينظر إلى أسفل. لا يبالي إذا جرحت قدمه شأفة زجاجة مكسورة بل يندفع إلى الأمام مرتفعًا كأنه في رقصة صوفية، عيناه شاخصتان لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا.

في سرعة البرق ذهب أحد صبيان الحاج حامد إليه في القهوة، وأبلغه بخبر ظهور الشيخ حسن في البلد، والكينج وإيحه وزوجة الحاج حامد الشابة ملئوا البلد كلها بالإشاعات عن صفعة الشيخ حسن الرجل البركة، التي كانت وجه الخير وقدم السعد عليهم، وقالوا إن الحاج حامد قرر يحج للسنة الرابعة على التوالي ويشكر

ربنا قدام الكعبة الشريفة، ونوى بعد الحج يفرش الجامع الكبير كله بحصير بلاستيك درجة أولى، وفوق البيعة ولأن الحاج عنده سرايا كبيرة في الجيزة، نوى يرشح نفسه في مجلس الشعب عن صفط اللبن.

سار الشيخ حسن ونصف البلد خلفه، زغلول الفوال وعزيزة العمشة والرفاعي الحلاق وفكري التمرجي، ولما وقف قدام القهوة وقفوا. من بعيد نادى عليه الحاج حامد، على عكس توقعات الجميع.. تودد إليه وصالحه على سحلب ساخن غمرت رائحته القهوة كلها. طلب منه أن يسامحه لأنه سيحج بيت الله الحرام للمرة الرابعة، وعرض عليه أن يحج معه؛ فهز الشيخ حسن رأسه موافقًا. ثم ابتسم ابتسامته الغامضة الملتوية ولوح بيده؛ فظن الحاج حامد أنه سيضربه كفًا أخرى، قفز إلى الوراء؛ لكن الشيخ حسن أعاد يده داخل جلبابه وابتسم.

الحاج حامد كان رائق المزاج. أجلسه بجواره كأنه شقيقه الأصغر الأبله، وكان صوت محمد قنديل عاليًا في الراديو يغني «أبو سمرة السكرة»، وبعد أن شرب الاثنان السحلب الدافئ أخذه معه إلى الرفاعي الحلاق، وأمره أن يهتم به ويشذب لحيته وشاربه، ويقص أظفاره السوداء.

في دورة المياه الملحقة بالجامع الكبير حسب شهادة فكري التمرجي، أجبر الحاج حامد الشيخ حسن على أن يستحم ويرتدي ملابس الإحرام:

«حلوة يا شيخ حسن؟!»

هز رأسه بطريقة غير مفهومة، وابتسم نفس الابتسامة التي لا يغيرها أبدًا. ابتسامة بلهاء لكن مع التمعن فيها تصبح مرعبة، وقد يقف شعر المرء إذا تأملها طويلاً. للمرة الأولى يرتدي رداء ناصع البياض، وتظهر أجزاء من جسمه المحمر المشعر أمام الآخرين.

كانا واقفين متجاورين في الساحة الواسعة بين الجامع الكبير والقهوة؛ حيث تجمع تباعًا عشرات الحجاج الرجال حليقي الرءوس، والنساء الملفوفات في البياض وعائلاتهم جاءت من قرى وعزب مجاورة لوداعهم. ستة أتوبيسات سياحية كلها زرقاء تستعد للانطلاق، وقد أضاءت الكشافات الأمامية مع دخول وقت الغروب. السائقون فتحوا «الكاسيتات» في اتفاق على نشيد أسماء الله الحسنى. كان الحجاج رغم صعودهم إلى مقاعدهم يناقشون المحاسب صاحب شركة السياحة في تفاصيل جوازات السفر والأختام والتأشيرات وتغيير العملة، وحكم الاستمناء أثناء أداء المناسك.

اختفت الشمس تقريبًا وراء مئذنة الجامع، والشيخ حسن ما زال واقفًا في رداء الإحرام بجوار الحاج حامد. تفوح منه رائحة الصابون ويبتسم للعيون التي تطالعه باستغراب من وراء زجاج الأتوبيس؛ لكن المحاسب لم يسمح له بالصعود إلى أي من الأتوبيسات الستة الموزعة على مسافات متقاربة في الساحة الترابية. (بالمناسبة المحاسب له أخ أكبر يعمل محاسبًا أيضًا لكن في القاهرة، ونشروا خبره في الأهرام أنه انتحر بعد هبوط أسهمه في البورصة)

الحاج حامد تكلم مع المحاسب على جنب لتليين دماغه، حسب رواية عم أحمد الحدَّاد، واقترح أن يأخذوه معهم ثم يتركوه في ميناء السويس أو سفاجة أو في أي داهية تأخذه؛ لكن المحاسب رفض بإصرار تحمل مسئوليته وأغلق باب الأتوبيس في وجهه. فطاف الشيخ حسن حول الأتوبيسات وهي تنطلق من دونه على الإسفلت الرئيسي. كان يقذفها ومن فيها بالحجارة ويسب المحاسب والحاج «حامض»! ويصيح:

«تعال هنا يا ابن الكلب.. أنت اللي سرقت النحاس»!

حسب رواية عم أحمد الحدَّاد شيخ الطريقة الرفاعية؛ فإن الأتوبيس الثاني الذي أقل الحاج حامد الصفطاوي أُعيد بركابه من ميناء السويس لوجود أخطاء في تأشيرات السفر. أما الحجاج الذين كانوا في الأتوبيسات الأخرى؛ فأقسموا بقبر النبي العدنان الذي زاروه بأنهم شاهدوا الشيخ حسن يطوف معهم حول الكعبة المشرفة مرتديًا ملابس الإحرام، وقد عاد شابًا وسيمًا كالبدر في ليل التمام*.

(*) من المؤكد أن معظم القراء على دراية كافية بأن القصة القصيرة أقرب إلى حلقة معلقة في تيار الزمن اللا مرئي واللا نهائي، وليست مثل الرواية التي تدعي لنفسها نتائج حتمية وتغلق في صفحاتها الأخيرة لعبة المصائر، وكُتاب الروايات عادة مولعون بهذه اللعبة التي تضفي عليهم مسحة إلهية وثقة زائفة بقدرة الذات على رسم المصائر والتحكم في النهايات. لهذا السبب وضعت تلك الإضافات الهامشية لإرضاء ذائقة قراء الروايات لأنهم مثل كُتابها يصابون بعدوى الولع بكشف الحقائق ونهايات الأشياء، ومسحة الغرور والثقة الزائدة لفرط ما قرأوا من روايات متخمة بكل شيء.

وفيما يلي رصد المصائر الروائية لأبطال قصة قصيرة:

ـ بلال المليجي الذي كان واقفًا على ناصية الجامع الكبير أمام محل الخردواتي عندما رأى الحاج حامد يمر منفعلاً محمر الخدين. ظل يداوم لسنوات على الوقوف في هذا الموقع الإستراتيجي لمراقبة جماعة السكاسيك (يقصد الملتحين) كلما دخلوا إلى الجامع في أوقات الصلاة غير الرسمية، والبلد كلها تعرف أنه مخبر سري، وما زال يمارس مهامه حتى اليوم، رغم أن محل الخردواتي أصبح «كوافير قشطة للسيدات».

ـ نعيمة العمشة التي أبلغت أولاد الحاج حامد وصبيانه بخبر صفعه صفعة معتبرة، هي واحدة من أساطير البلدة الخالدة، لديها معين لا ينضب من القصص والإشاعات، فرقت بين فتحي وزوجته نفيسة بتهمة أنها وضعت له سمًا في الأكل، ودفعت فراج القط لركل أبيه أمام الجميع، وأخبرت زوجات لا حصر لهن عما يفعله أزواجهم في غيطان الذرة، وكالة أنباء نموذجية وكاتمة أسرار من طراز فريد رغم أنها لا تكتم سرًا؛ لكن بكل أسف لقيت مصرعها بعد مشاركتها في هذه الحكاية بنحو خمس سنوات؛ حيث عثر عليها مغتصبة ومقتولة في المقابر القديمة، وكان حزن البلدة عليها بأخيارها وأشرارها عظيمًا، لولا انتشار تليفزيون توليمصر في تلك الفترة؛ حيث أنساهم نعيمة وحكاياتها وإشاعاتها.

ـ الكينج النجل الأكبر للحاج حامد الذي تلقى الصفعة الثانية ـ بعد صفعة أبيه ـ عند سور المستشفى لم يزر البلدة على الإطلاق منذ أن نقل والده نشاطه التجاري وعقاراته إلى القاهرة والجيزة والساحل الشمالي، ويقولون إن الكينج تزوج بنت لواء شرطة مشهور بتعذيب الإسلاميين.

ـ إيهه النجل الثاني للحاج حامد الذي كان موعودًا بالصفعة الثالثة، فتح معرض العبقري للسيارات في شارع عباس العقاد في مدينة نصر، ويتردد على البلدة كل بضع سنوات لأخذ خادمة قاصر دون الخامسة عشرة، وإعادة الخادمة القديمة إذا بلغت سن العشرين.

ـ الرفاعي الحلاق الذي نسب لنفسه القصة الحقيقية للشيخ حسن، كان صاحب مهمة تاريخية في حلق شعر ولحى وشوارب أهل القرية من أيام العمدة الكبير، وأكثر من ثلاثة أرباع أهل البلد ذكورًا وإناثًا مروا تحت مشرطه لتهذيب أعضائهم التناسلية بحسب

الشرع. اعتاد سرقة حكايات وإشاعات نعيمة العمشة ونسبتها إلى نفسه كي يأكل بها أذن الزبون. كما نافس فكري التمرجي في إعطاء الحقن في البيوت وإجراء عمليات بسيطة كالحجامة، إلى أن أصيب بغرغرينة سكر اقتضت بتر ساقيه؛ فصنع له عم شحتة النجار (شخص ليس له أي أهمية تاريخية لذلك لم يُذكر في متن القصة) كرسي خشبي عمولة بأربع عجلات ومرتفع فوق رأس الزبون إلى أن وافق العمدة لصبيه فتلة على فتح دكانه الخاص واستكمال مسيرة الحلاقة.

- زغلول الفوال الذي تحدى نعيمة العمشة في إمكانية ذبح الحاج حامد على يد الشيخ حسن، افتتح أول مطعم فول وطعمية في البلد ،وعلق فيه صورة شيخ الطريقة الشاذلية؛ ثم أطلق لحيته شبه الحمراء، وهو من ابتدع في كل سنة فكرة تعليق يافطة خمسة أمتار فوق المطعم لتأييد الريس، وفي سنة من السنين علق يافطة يرشح فيها نفسه لرئاسة الجمهورية، وفي ظرف ٢٤ ساعة دخلت البلدة للمرة الأولى في تاريخها ست «بوكسات» وعشر ضباط وجيش عساكر وقبضوا عليه، وفي قسم المركز حلقوا لحيته الحمراء وأفهموه خطأه ـ حسب ما قال ـ وقالوا له إن كل اليافطات الحلوة التي علقها في السنين الماضية لا تشفع له أمام غلطة اليافطة الأخيرة؛ لكن بعد شهر رجع فتح المطعم وعلق يافطة مبايعة للريس إلى الأبد وأيضًا زينها بالأنوار.

- فكري التُمرجي الذي رأى بنفسه الكمين الذي أعده أولاد الحاج وصبيانه للشيخ حسن، يعود إليه الفضل في إرساء قواعد الطب في البلدة بكل فروعه من صيدلة وعلاج بالأعشاب، وكيفية إعطاء الحقن في العضل والوريد والطهور الصحي للأولاد والبنات؛ لكن حقيبة أدواته الصحية ظلت على حالها العتيق إلى أن زودت الحكومة الوحدة الصحية بطاقم ممرضات متعلمات؛ فدمرن سمعته نهائيًا.

- عم أحمد الحداد هو أول من بشر برؤية الشيخ حسن يطوف حول الكعبة، وأول من أدخل الحياة الحديثة إلى البلدة، رغم أن الأجيال الجديدة لا تعرف قيمته؛ لكنه ألان الحديد ونفخ الكير وطوع النار، ومن دكانه البسيط خرجت اختراعات لا حصر لها مثل شعلة نحاسية تحت قفص حديدي للطبخ بدلاً من الكانون العتيق، ومواسير مياه نظيفة للحمام، وصناعة الفئوس والمناجل والبوابات وتصليح ماكينات الري؛ فالبلد لم يكن فيها أي جهاز

كهربائي عدا راديو واحد في دوار العمدة، وبفضل عم أحمد اكتشف أهل البلد آلات وأجهزة كبيرة من صناعة عم أحمد قبل أن تحدث النقلة الكبرى مع العائدين من العراق والسعودية، الذين فتحوا محلات تبيع ثلاجات وغسالات ومراوح وتليفزيونات ملونة بالتقسيط، وفي شيخوخته الطاعنة أصيب بالعمى ،وتولى مشيخة الطريقة الرفاعية في البلد، بينما ظل دكانه مهجورًا حتى اليوم، تنبعث منه رائحة الفحم والدخان.

ـ الحاج حامد الصفطاوي أصبح عضوًا في البرلمان لعدة دورات متتالية إلى أن أصابه الخرف والرعاش، فتنازل عن مقعده لنجله الأكبر.

ـ زوجة الحاج حامد التي لم تعد شابة بعد المعاناة لسنوات من ضراطه، تم ضبطها في وضع مخل مع سائق توك توك؛ فاكتفى الحاج بتطليقها والزواج عرفيًا من الممرضة التي تخدمه بمكافأة مجزية.

ـ أخيرًا لم يُشاهد الشيخ حسن يطوف حول الكعبة مرة واحدة فقط؛ بل إن كل من كتب له الله الحج من أهل القرية في السنوات التالية كان يعود ويقسم بحجته التي ما زالت معلقة بين السماء والأرض إنه رأى الشيخ حسن من بعيد وهو معلق بأستار الكعبة المشرفة.

الخناجر السبعة

(١)

اجتمع «ز» الطويل، «ز ـ ١» القصير، «ز ـ ٢» النحيفة، و"ز ـ ٣» السمينة. هتفوا للشاب الذي يقف مبتسمًا على شاطئ النهر، وفي يده كيس أسود ينز سائلاً غريبًا، لم يصنعوا له جناحين من ريش لكنهم صفقوا، ثمانية أيادٍ على الشاطئ مثل فرقة موسيقية تلهب حماسه بإيقاع متواصل، كلما ارتفع عن الأرض هللوا وصاحوا، كاد يطير، فوق النهر، فوق اليابسة.

حماسهم، تشجيعهم، همسهم الرائع المُسكر، موسيقى أيديهم، الريح المواتية، وجريان النهر أسفل قدميه، عناصر الوجود كلها ساحرة تضافرت في روحه وانصهرت مثل شعلة مقدسة يرفعها بيده ويحلق إلى أعلى.

جسده يخف كأنه عصفور دوري أو فراشة النوار. الوجود ذاب وتحول إلى طنين، خدر لذيذ، صور غائمة ونور وضاء.

بعد وقت ـ ليس ساعة وليس دقيقة ـ لكنه وقت. اختل توازنه، قوة غامضة عطلت قانون الجاذبية وقتًا ما ثم أعادته بعنف؛ فسقط الشاب الذي كان يرفرف مبتسمًا على حافة النهر. سقط أرضًا وتدحرج هابطًا إلى سفح الجبل. انقلب على وجهه مرتين أو ثلاث. ارتطمت يداه ورجلاه مثل أجنحة هشة تتكسر وتتلوى كلما انقلب.

ليس متأكدًا مما رآه حين حلق وقتًا إلى أعلى، فضاء زجاجي مغمور بالماء، أكواريوم ضخم معلق بين السماء والأرض، تسبح في داخله أجزاء بشرية: عيون، أرجل، سيقان بيضاء شبه متحللة، أسماء صغيرة ملونة كأنها زهور، أوراق شجر، طحالب، عشب أخضر، صفصافة عملاقة، جثث فلاحات نصف عاريات كأنهن تماثيل إغريقية فوق صخور مغطاة بالريم والخضرة والطحالب الصغيرة، ساعات يد، حقائب نسائية، «تيشرتات» بيضاء، براويز خشبية لصور غير موجودة، علب سجائر، علب سردين، ماكينات حلاقة، كرافتات ملونة، جهاز كمبيوتر يجرجر أسلاكه وراءه، لحية بيضاء عائمة بلا وجه، مسبحة، زجاجات بيرة ستيلا، شيشة، حافر حمار، زجاجات أدوية مغلقة كما هي، غليون، تذاكر مترو صفراء، خوذة جندي، تمثال أبيض للعذراء مريم، صورة للكعبة، لوحة لمنظر ريف يتوسطه نهر، دمية عروس ترتدي فستانًا أحمر، مئات المفاتيح لشقق وسيارات، بطاقات معايدة، جوازات سفر، لافتات نحاسية عليها أسماء مجهولة، عدد من السنج ومطاوي قرن الغزال، عصي شرطة، سباطة موز، وحدة تكييف، شعار سيارات فورد، خريطة فلسطين القديمة، جرس ضخم، راديو صغير، طبلة مثقوبة، «ماج»

عليه رسمة توم وجيري، جوال من الخيش ممتلئ بشيء ما، وأرانب بيضاء بعيون قرمزية في الأسفل ترعى عشب الأكواريوم.

هناك لم ير أحدًا ممن صفقوا له، لا يدري هل كانت تلك الكائنات والأشياء تسبح حقًا أم هي الحركة الذاتية للماء تغير أمكنة الأشياء؟

ما زال ملقى عند سفح الجبل، يد واحدة من الأيادي الثمان كانت كافية كي يتساند عليها وينهض لكنه لم يجدها.

لمح بطرف عينه ملاكًا مكللاً بتاج من الياسمين الأبيض يهبط خفيفًا من السماء؛ ثم دنا منه فتدلى وغرس في بطن قدمه المقلوبة إلى أعلى خنجرًا ناصع البياض كي يثبت جسده إلى الأرض.

(٢)

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمسًا وهو هكذا: ممدد أرضًا، مقيد إلى ذات البقعة: بقعة السقوط، والهبوط في المكان ذاته الذي حاول الطيران منه.

كانت قدمه مثقوبة بخنجر ناصع، وكان مقيدًا إلى ثقل الأرض؛ لكن عينيه تدوران وتريان كل ما عليها من جبال وتلال وأشجار ومدن ومعابد ووحوش وبشر.

مر عليه ألف يوم وألف ليلة، يتنفس ببطء لاهث. لم يعد يدرك كيف يحصي السنين، ولا كيف ينزع الخنجر من قدمه اليسرى؛ لكنه ما زال يرى حتى وهو مغمض العينين.

كان يراهم من بعيد. «ز"، «ز ـ ١"، «ز ـ ٢» و"ز ـ ٣»، الطويل والقصير، النحيفة والسمينة، يمرون عليه مصلوبًا على وجه الأرض، كأنهم لا يعرفونه! يكتشفونه للوهلة الأولى، وعندما باتوا قاب قوسين أو أدنى، ولوا ظهورهم قبل أن تلتقي عيناه بأعينهم.

بل إن «ز» الطويل مد يده وحجب ضوء الشمس؛ ثم أطفأ شمعة أوقدتها راهبة عابرة في آخر الممر المتجه إلى الوادي الأخضر.

من بعدهم مر ملاك نوراني الملامح، استل من خصره خنجرًا يمنيًا وفقأ عينيه، كي يعتاد العتمة ويرتاح من الرؤى والأمل.

(٣)

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمسًا وهو هكذا، ممدد في عتمته الأبدية مثل إله لا يجد أحدًا يتحدث إليه، لا شيء هناك سوى العتمة والصمت وحشرجته الواهنة ورائحة النعناع الآتية من الوادي الأخضر.

جاءت الداية والحلاق والدلال، هو لا يعرف أنهم الدلال والداية والحلاق. لا يرى؛ فكيف يعرف؟! ليس للدم ولا الشعر ولا النقود روائح تبقى في أيديهم وتدل عليهم.

اقترب الحلاق من أذنه:

ـ ألست فلانًا؟

قال: لا.

تفحصت الداية ملامح وجهه:

ـ أليست أمك فلانة؟

قال: لا.

نغزه الدلال بعصا قصيرة في يده:

ـ أليست هذه بلدك التي ولدت فيها؟

قال: لا.

سجلوا في الأوراق اسمًا ليس اسمه، نسبوه إلى أم ليست أمه، إلى بلد ليست بلده؛ ثم وقعوا في ذيل الصحيفة بأن فلانًا ابن فلانة أمة الله من بلد كذا، عاش خائنًا يكره بلده، متنكرًا لأصله وأمه؛ فجزاؤه أن يموت وحيدًا في العراء. قرب النخلة الوحيدة تحت الغمام.

لكن الملاك الهابط من السماء اكتفى بقطع لسانه الذي لا يقول سوى «لا».

(٤)

وجاء من خلف التلال والظلال الملكان منكر ونكير. صمتا طويلاً في حضرة من فقد لغة الكلام. استمعا وقتًا إلى الكلام الساكن في حشرجته، أخيرًا تودد إليه منكر قائلاً:

«يا بني، يا عبد الله يا ابن أمة الله، ألست فلانًا ابن فلانة من بلد كذا؟»

حشرج خفيفًا:

«لا».

طوى منكر الصحيفة السرية التي تُحصى فيها السنون والأفعال والأقوال، وشهادات بشر يعرفهم وبشر لا يعرفهم.

وقف نكير في مكانه وصاح غاضبًا:

«ما مذهبك؟ من نبيك؟»

استمرت حشرجته واهنة:

«لا مذهب لي ولا نبي».

اقترب منه أكثر، وبحنان الأبوة تلطف في السؤال:

«أو ليس لك يا بني مذهب تقاتل من أجله؟ إنبي تدافع عنه؟»

ضم يديه على الطريقة اليابانية؛ ثم باعدهما وهزهما عنيفًا. فهما أنه لا يمنح ولاءه المطلق لأحد أبدًا. باعد بين يديه إلى أقصى ما استطاع، يؤشر لهما على تلك المسافة العميقة التي يبقيها بينه وبين العالم، مسافة ضرورية لاحتمال جميع أشكال المكسب والخسارة.

احتار منكر ونكير في أمره، وإن لم يخف التعاطف في أعينهما، تبادلا نظرة طويلة؛ ثم سجلا في دفتر الأبدية:

كيف يمكن أن يدخل الجنة رجل لم يُعاد أي فريق ولا دافع بروحه عن أي مذهب؟! هل يمكن أن يدخل الجنة رجل لم يفطم على الكراهية؟!

ليس على حافة النهر من يجيب، والملاك الذي خرج هرقليًا عاريًا من الماء، كانت لديه مهمة محددة: أن يغرس خنجره المسموم خلسة في قلبه، مباشرة وبضربة واحدة.

(٥)

كان مثبوتًا في الأرض وفي السماء، باسم ليس اسمه، منسوبًا إلى وطن ليس وطنه، إلى أم ليست أمه، أماكن ليست أماكنه. أجبروه أن ينتمي إلى مذهب ليس مذهبه؛ فلا يمكن أن يقاس الخطأ والصواب إلا عبر الولاء للمذهب، لا يمكن أن يطبق عليه مبدأ الثواب والعقاب إلا إذا كان يدين بالولاء لهذا المعتقد أو ذاك. من غير المعقول أن يُحاسب شخص بلا هوية على هوية لا يعرف عنها شيئًا!

لا مفر من الاستعانة بالكورس مرة أخرى: الداية والحلاق والدلال ومنكر ونكير. جاءوا من نوافذ السماء وشقوق الأرض، ودشنوا حفل التلقين والتعميد:

«إذا سُئلت عن اسمك فقل: فلان ابن فلانة. إذا سُئلت عن بلدك فقل كذا إذا سُئلت عن مذهبك قل كذا. استغرق حفل التلقين عشر شموس، عشرين، ستين شمسًا حتى أصبح العقاب مبررًا على أي خطأ أو نسيان لما تم تلقينه إياه.

أثناء التلقين تبادلوا جميعًا جلب الدلاء من النهر، غمروه بالماء مرات ومرات، حتى يفيق من إغماءته المربكة، وينتبه بحواسه

الخمس لدفتر التعاليم. كانوا بارعين في غسل أعضائه المتيبسة وتطهيره من الرجس والأوساخ ونواياه السوداء.

اندس بينهم ملاك في هيئة حارس مقبرة، سجل بنفسه كل النقوش الأساسية على نصل خنجر معقوف؛ ثم تعاونوا جميعًا في إيلاج الخنجر من فمه وإخراجه من فتحة الشرج؛ فتلك هي الطريقة المثلى كي تبقى التعاليم والنقوش في جوفه إلى الأبد.

ما بين الثقب العلوي والثقب السفلي، تاريخ مرير من التعاليم والنقوش!

(٦)

الأكواريوم المهيب انفجر أشلاء فوق ظهره المقلوب، ومن فداحة صرخته لم تستطع أذناه أن تسمعها!

العابرون أطفئوا الشمعة والشمس، ورحلوا...

العابرون صفقوا له وهو بلا جناحين؛ ثم تركوه وجسده المتعب يئن في العراء، تركوه في حفل التلقين الشرس يجتر بيانات كاذبة عن نفسه، يزعم أن «س» والده وما هو بوالده. يزعم أن الله في السماء ابتسم له دون بقية ما خلق، يتحدث عن مقاه لم يزرها، سفن لم يركبها، أعمال لم يعملها، أفكار لم يفكر فيها.

تائه في كلامه السري بين ما لقنوه وما رآه وما هيئ له أنه رآه. يجتر تعاليم غامضة؛ فكيف يدرك بها ذاته؟!

في اللحظة التي زينه فيها ملاك الرحمة للصعود الحقيقي نحو البهاء، سمح له للمرة الأولى أن يبصر ذاته في المرآة. كانت معجزة أن يرتد بصيرًا سميعًا متكلمًا. حقًا ما فائدة الملائكة إن لم يصنعوا المعجزات؟!

اكتشف في المرآة أنه لم يعد هو:

«هذا ليس أنا» هكذا صرخ؛ لكن ذهبت الصرخة مع الريح ولم تعد.

مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون شمسًا، ألف شمس وهو يصرخ: لا أراني فكيف أعرفني؟ لا أسمعني كيف أفهمني؟ لا أتكلم كيف أقرأني؟ من أنا؟! من أنا؟! من أنا؟! وامرأة من نافذة بعيدة تنادي بجنون: «تعال يا ابني.. تعال.. تعال».

صرخات سرمدية متضادة، تجوب الآفاق ثم ترتد إلى أذنيه دون أن تحمل إجابة. كلما رن السؤال «من أنا؟» في الفضاء ضحك أحدهم من سذاجته، وخلع قناعه الملون: الحلاق هو الدلال، الداية هي نكير، منكر هو «ز»، « ز» هو «ز ـ ١».

بالبساطة نفسها جاء ملاك عجوز أسمر في ملابس بيضاء فضفاضة. مد الملاك الحكيم نصل خنجره القصير، وغرسه مثل جراح ماهر في جلد وجهه، بعدما وضع في مواجهته مرآة الحقيقة. استمرت العملية وقتًا. ليس ساعة وليس دقيقة. لكنه وقت. الملاك المحنك ينزع عن وجه الشاب الذي وقف مبتسمًا على حافة النهر قناعًا تلو قناع تلو قناع تلو قناع؛ ثم يسلم له وجوهه الذابلة كي

يحتفظ بها معلقة على الجدار مثل سروج الخيل. تلك الوجوه التي استهلكها مرارًا في حفلات التلقين، في خياله، في حيوات يشعر بطريقة ما أنه عاش فيها؛ لكنه ليس متأكدًا أين ومتى وكيف عاش؟!

آخر ما تصوره أن يكون هو نفسه الداية والحلاق والدلال، منكر ونكير، «ز» و «ز ـ ١»..... هو نفسه «س».. هو نفسه «الغريب الصاعد إلى مكان غريب»، هو نفسه الخنجر ناصع البياض الذي قطع لسانه وفقأ عينه وطعن قلبه.

(٧)

لولا إدراك الوجوه التي كانها لما سُمح له أخيرًا بالصعود إلى السماء السابعة. هناك رأى سبعة ملائكة في ثياب ملائكية بيضاء، في خصورهم سبعة خناجر متدلية. كانوا يبتسمون له مرحبين.

رد الابتسامة بابتسامة؛ ثم قال في سره كمن أصابته لوثة: مرحى بأعوان الشيطان. كان ممسوسًا مضللاً؛ لكنه كان مكشوفًا لهم على حقيقته في مرآة الحقيقة. هو في ظنهم ليس أكثر من برص علق في حبائل الشيطان، هو في أعماقه كان روحًا بريئة لا يعرف كيف تتجسد. دائمًا وأبدًا يحوم حول الحكاية الأولى وهي ممحوة تمامًا من فناء وعيه. هل كان الأكواريوم الرهيب أم الحكاية أم موسيقى الريح؟

من نافذة السماء السابعة رأى الأرض كما لم يرها من قبل.

كانت امرأة في حجم حوت أبيض تستحم في ماء مظلم عميق. سأله أحد الملائكة:

ـ أليست هذه أمك؟

هز رأسه مطيعًا أو مجيبًا.

كان الماء المظلم العميق لا شاطئ له؛ لكنها لما أخرجت وركها العظيمة ناصعة البياض من الماء، صارت شاطئًا ثم هبطت فوقه إوزة بيضاء باضت أعلى الورك ثلاث بيضات: ذهبية وفضية ونحاسية؛ لكنه لا يتذكر أي بيضة فقست قبل الأخرى؛ ثم حلقت الإوزة عائدة إلى السماء. سأله ملاك آخر:

ـ أليس ذكر الإوز هذا، هو أبوك؟!

هز رأسه مجيبًا. لا يدري متى اختفت ورك أمه مرة أخرى في مائها العميق، ولا متى ظهر الأكواريوم مرة أخرى يتحرك في مدار معلوم مثل مجرة مصغرة عالقة بين السماء والأرض!

تورط في لعبة لم ولن يفهمها أبدًا. هل انفجر الأكواريوم حقًا فوق سلسلة ظهره؟ أيهما كان موجودًا قبل الآخر؟ مرت عليه عشر شموس، عشرون، ستون، ألف شمس، وهو يجري من نافذة سماوية إلى نافذة سماوية أخرى، وفي كل مرة يفشل في العثور على إجابة، يعجز عن استعادة حكاية لا يعرف إن كان قد عاشها من قبل أم حكاها له ملاك مجهول!

ألقوه من نافذة السماء الثالثة، وتركوه وحيدًا.. بلا نقوش ولا تعاليم ولا تلقين.. بلا طمع ولا خوف.. طفل مكتف مطمئن إلى ذاته، لا يعول على البقاء ولا العدم، لا الاسم ولا المسمى، لا اليأس ولا الرجاء.. يتمنى فقط أن ينام وادعًا فوق تلال القطن الأبيض المُندى، بلا ألم ولا حشرجة؛ لكنه يخشى أن يكتشفوا ما يدور في أعماقه فيحرموه متعة النوم الآمن في العراء.

كأنه يرفس بعنف مشيمة وجوده المحتمل كلما اقتربت منه راهبة في بياض القشدة، كانت واقفة على الممر المتجه إلى الوادي الأخضر. هي راهبة لكنها بلا دين، وبلا زي، عارية تمامًا مثل منحوتة نورانية، ذات عين مفتوحة مثل نهر، وعين مغلقة مثل يابسة. أشعلت شمعة بالقرب من وجهه الصامت المعذب؛ فكاد أن يعي للمرة الأولى ذاته. ذات هشة تدور وتدور في ماء مظلم عميق. في عين الراهبة تلمع كل تلك الأشياء والكائنات والبقايا التي رآها أو توهم أنه رآه سابحة في الأكواريوم العظيم.

احتضنته الراهبة بجلال عريها وقالت:

«لا بأس يا بني، أعلمُ تمامًا، أعلم أنك تعذبت طويلاً لكن رحلتك المقدسة لم تبدأ بعد»!

الطاولة رقم ٧ في جروبي

أول شخص وصل كان كهلا، يعتني بأناقة شعره الفضي ويضع وردة في عروة الجاكيت المقلم. جلس على الطاولة رقم ١٦، وراح يسلي نفسه بتصفح جريدة «الشروق» التي كان يحملها في يده.

أما الثاني فلا علاقة له بالرجل الأول. نصف أصلع يرتدي قميصًا قطنيًا فضفاضًا مثل قمصان الهنود ونظارة طبية. اختار الطاولة رقم ٢٣ المجاورة للنافذة المطلة على شارع طلعت حرب. بعد عشر دقائق وصل شاب لا علاقة له بالجريدة التي يتصفحها الأول. كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين، وكان يطلي شعره بجيل لامع، ولا يتوقف عن الحركة بأطرافه وجذعه حتى أثناء جلوسه وحده على الطاولة رقم ٤٥.

ثم جاء شخص سابع تأمل قليلاً الشخص الثاني نصف الأصلع. كان شابًا أسمر البشرة ويتحلى بوسامة ودقة في ملامحه. جلس صامتًا كأنه يراقب ما يدور في المقهى، بالكاد يظهر باهتًا على القطعة النحاسية المثلثة الرقم ١٩.

تقريبًا يوجد الآن عشرة رجال من أعمار مختلفة على طاولات مختلفة، وقد طلبوا عصائر طازجة وآيس كريم وكعكًا بالفواكه ومشروبات أخرى تناسب برودة تلك الليلة الشتوية. كانوا جميعًا قلقين لكن راح كل منهم يقاوم قلقه بطريقته الخاصة ما بين تصفح الجريدة ومطالعة أضواء الميدان، وأرداف النساء العابرات خلف زجاج المحل، وفرك القطعة النحاسية التي تحمل رقم الطاولة.

وجود هذا العدد من الرجال متفاوتي الأعمار بدا ملغزًا في ذهن النادل؛ لكن لا أحد من الرجال العشرة كان مشغولاً بما يدور في ذهن النادل! التخمين الوحيد أنهم واعدوا عشر نساء هنا.

التاسعة مساء.

مقهى جروبي.

مع مرور الوقت دون أن يفوح في المكان أي عطر نسائي، تأكد النادل أن الأمر غامض وملغز، إلى أن دخلت امرأة نحيلة ترتدي فستانًا أسود عاري الصدر، وتضغط حوافه برقة على ثدييها. مشت المرأة بين طاولات الرجال الوحيدين بكبرياء ولا مبالاة قاصدة طاولة بعينها كأنها تألفها من زمن، وضعت منفعلة حقيبة يدها على الطاولة رقم ٧ في الركن البعيد؛ ثم جلست وانهارت مباشرة في نوبة بكاء.

اجتماع سري للآلهة

في الهزيع الأخير من الليل، اجتمع الآلهة برئاسة الإله الأكبر «هوناب كو»، وبدأوا التفكير في خلق الكائن البشري. «يوم كاكس» ـ هكذا اسمه ـ إله الحُبوب اقترح تخليقه من عجينة الذرة؛ لكن الإله الأكبر اعترض لأنه يريد كائنًا حيًا لا رغيفًا من الخبز المحمص.

في الاجتماع الثاني، اقترح «إيتزمنا» سيد المطر أن ينفخ جميع الآلهة نفخة إله واحد في خلطة من المطر والطين؛ فسخر إله شاب انضم أخيرًا إلى مجمع الآلهة المقدس، وقال: طين ومطر! كأننا سنخلق ضفدعًا يصدعنا بنقيقه الغبي؟! بعدها رفع الإله الأكبر الجلسة ألف عام، زادها مائة، كي يأخذ كل إله فرصته في التأمل والتدبر.

وصل الآلهة إلى مقر الاجتماع الثالث متنكرين على هيئة ضوارٍ ونسور وخفافيش عالقة بأغصان تسبح في عتمة الفضاء اللا نهائي؛ لكن كل ما أسفر عنه النقاش أن الآلهة حددوا موعدًا لخلق الكائن البشري خلال مائتي عام على أقصى تقدير.

ثم تباروا أثناء اجتماعهم الرابع، في عرض أكثر من خلطة سحرية باستخدام مواد مثل الماء والذرة والطين وصلصة الطماطم ـ أحدهم أصر على تضمين الفلفل الحار في تكوين الكائن البشري وإلا بدا مثل السحالي البرية باردة الدم ـ لكن بسبب غياب الإجماع تم هدم جميع المجسمات الصغيرة التي جرى النقاش بشأنها، وأيضًا إمعانًا في السرية حتى لا تسرق الفكرة الآلهة المنافسة على الضفة الأخرى!

ليس معقولاً ألا نعثر في كل هذا الوجود الشاسع بما فيه من سماوات وبحار وغابات، على المواد اللازمة؟! ليس معقولاً أن يجتمع كبار الآلهة فوق أهرامات الميرادور ثم يعجزون عن الاتفاق؟! مثل هذه العبارات الرعناء التي صدرت عن الإله الشاب، آلمت إله الحكمة كثيرًا؛ لكنه صمت على مضض؛ فهو ببصيرته النافذة يدرك أن الإله الشاب جديد في «كار» الألوهية، ويحتاج إلى خمسمائة عام على الأقل، إلى أن ينسجم لسانه مع ما في قلبه!

من السهل أن تصنع خبزًا لكن من الصعب جدًا أن يكون ناضجًا، تلك هي المسألة الشائكة التي تشغل بال الآلهة الكبار الذين تبادلوا بالنظرات كلامًا طويلاً لا يُباح به؛ فما رأوه بنظراتهم العميقة التي تخترق مرآة الغيب، لا يُشجع إطلاقًا على استكمال المشروع، وقبل أن تلمح الشياطين آثارهم المقدسة على قمة الهرم الأكبر، أنهى الآلهة اجتماعهم، واجمين؛ ثم حلقوا بعيدًا بأجنحتهم النورانية، بعدما اتفقوا على إرجاء خلق الكائن البشري، إلى حين العثور على مواد أفضل.

فتاة أوباما

لن أُناقش تفاصيل خطاب أوباما في جامعة القاهرة! لنفترض أنه ألقاه من فوق منبر المسجد الأموي في دمشق أو على ضوء شمعة في ممر معتم داخل سجن «أبو غريب»، ما الذي كان سيتغير؟

الأفضل أن أحدثكم عن تلك الفتاة الأمريكية من أصل مغربي التي استرخت مثل قطة سيامية في شرفة المقهى، مطمئنة إلى الصمت وجواز سفرها الأمريكي. كانت جالسة هكذا، من قبل أن يبدأ أوباما في إلقاء الخطاب. هادئة، لا مبالية، فقط تتأمل زرقة البحر أمامها، وتنفث دخان الشيشة من بين شفتيها، بلذة صوفية.

هذا ليس مقهى عاديًا بل هو أحد كازينوهات القمار المنتشرة في أغادير؛ لكن الفتاة لا تقامر حتى هذه اللحظة، ولا تُصغي فيما يبدو إلى كلام أوباما المعسول عن الحضارة الإسلامية؛ بل استمرت تتطلع إلى البحر من وراء نظارة شمسية بنية اللون، تخفي نصف وجهها. كان الراديو الصغير بجوارها يردد الخطاب لنفسه على الأرجح!

أي شخص عابر أمام الكازينو سيثير انتباهه منظر تلك الفتاة، بالشورت الجينز فوق الركبة، وتي شيرت بنفسجي بلا كُمين، الذي يظهر ذراعيها بيضاوين ممتلئتين، شرسين جدًا مقارنة بصغر حجم صدرها، والأغرب من هذا كله، حجابها الأسود الأنيق الذي يلف رأسها ورقبتها بإحكام؛ فيبدو مثل رأس مانيكان في محل أزياء.

أما مجموعة الإكسسوارات التي ترتديها فهي غاية في الضخامة، ساعة بلاستيكية صفراء كبيرة الحجم خلفها أساور فضية، وحقيبة يد بيضاء منبعجة مثل ثمرة كرنب.

ما بين صوت أوباما في الراديو، وفتاة الكازينو في أغادير، وقعت ثلاث إشارات محددة، قد تكون رُتبت قدرًا أو بتعليمات من الـ CIA أو هي مجرد مصادفات غير مترابطة أصلاً.

الإشارة الأولى، عندما قال أوباما: «أتيت للقاهرة وأنا أحمل في جعبتي أفكارًا جديدة، وحقيقة أننا يجب ألا نكون متنافسين بل متكاملين فيما يتعلق بمبادئ الكرامة والتسامح».

بمجرد أن قال بصوته الواثق المؤثر: «والتسامح»، توقفت الفتاة عن التدخين وتأمل زرقة البحر؛ ثم نهضت، ورنين الفضة يزيدها دلالاً، ومضت إلى داخل الفندق. أمام كوة زجاجية صغيرة قامت الفتاة بعملية تحويل عملات معقدة؛ فهي حولت ما بحوزتها من دولارات أمريكية إلى دراهم مغربية، ليصبح معها في نهاية الأمر مائة ألف دينار ليبي. لعلها تخطط لمغادرة أغادير إلى طرابلس ليلاً.

الإشارة الثانية، كانت عندما وصل أوباما في خطابه التاريخي إلى جملة: «أمريكا لن تغض النظر عن حقوق الشعب الفلسطيني للحصول على دولة مستقلة» فبينما ضغط بأسنانه على كلمة «مستقلة» تمايلت الفتاة وهي تسحب ردفيها الثقيلين وراءها، وتنضم إلى طاولة اللعب. هناك في الزاوية البعيدة قامرت بالمبلغ كله، دفعة واحدة. إذن هي لا تخطط للسفر إلى طرابلس ليلاً؛ بل إلى مقامرة بالدينار الليبي!

الإشارة الثالثة جاءت مع قوله: «يشكك الكثيرون في قدرتنا على القيام بهذه الخطوات وإحداث التغيير المطلوب»، ما إن تلا أوباما تلك الجملة ودفع بعيداً تلك الذبابة التي ظلت تخايله طول مدة إلقاء الخطاب، حتى وقفت الفتاة فجأة على الطاولة أمام خمسة عشر مقامراً من جنسيات مختلفة، وخلعت أولاً الشورت الجينز؛ ثم التي شيرت البنفسجي. وقفت فوق الطاولة عارية تماماً؛ لكنها ظلت متمسكة بالحجاب الأنيق حول رأسها وشخللة الفضة.

ليس وارداً بالطبع أن يتساءل المقامرون الخمسة عشر الذين أحاطوا بها وصاحوا وصفروا: إذا ما كان تصرفها الهيستيري المباغت نابعاً من رغبتها في رقصة خاصة تحية لأوباما على إشاراته الثلاث أم أن الرقص هو أنسب تعبير بعد خسارة مائة ألف دينار ليبي؟!

يد فاطمة

كان متكئًا على عكازه بشعور من تاه فجأة بين غرف البيت ولا يتذكر أية غرفة كان يقصد. الصالة شبه معتمة، وهو يحدق في أفق بعيد. اللمبة نمرة ٢ معلقة في أقصى الجدار، تهزها ريح الشتاء.

نادى: «يا علي»، رد عليه من داخل الغرفة صوت لامرأة عجوز:

«علي في العراق من خمس سنين، ربنا معه».

تحرك نحو اللمبة. حاول بيد واهنة ومرتعشة أن يرفع لسان الفتيل قليلاً؛ ثم تلفت حول نفسه كمن شعر بوجود أحد يمشي خلفه في الصالة الواسعة:

"إنت جيت يا مصطفى»

«مصطفى تعيش أنت يا حاج، اقرا له الفاتحة»

لم يقل شيئًا للمرأة ولا هي قالت شيئًا آخر. الصمت وصوت الريح في الخارج؛ لكن لا مطر يسقط. الكهرباء انقطعت عن البلدة منذ ثلاث ليالٍ. وجد نفسه خلف باب الدار، يتحسس الشراعة

المغلقة، ينسى أصابعه ـ قليلاً ـ على ملمسها الزجاجي الخشن. كأنه يوشك على الخروج ويتردد. ثمة يد تطرق بخفة من الخارج، يعرف صاحبة هذه اليد التي تنقر ثلاث نقرات مثل عصفورة عادت إلى عشها. نعم، هي يد فاطمة ابنته، تزوره ليلة العيد مع زوجها وعيالها.

«افتح يا ابا آني فاطمة»

أرهف أذنه خلف الباب كي يتأكد؛ لكنه لم يسمع شيئًا، حتى صوت المرأة الذي كان يأتيه من وراء ظهره انقطع هو الآخر، نامت فيما يبدو. كان ظله هشًا، ومحنيًا على الجدار، يهتز مع رعشة الضوء كأن عاصفة اجتاحته. استدار على عكازه، وبصعوبة سحب الفتيل إلى أسفل فانطفأ الضوء.

صوت الموت

هل ينادي ملاك الموت على الميت قبل أن يموت؟! كيف يبدو هذا الذي يُسمى «الموت»؟ ربما هو مثل تنين أحمر له سبعة رءوس وعشرة قرون، هذا مذكور في الكتاب المقدس. الماموث! إنه حتمًا مثل هذا الكائن المتوحش المشعر يطبق بأرجله على صدورنا في سكراتنا الأخيرة. يبقى ضاغطًا حتى تقفز الروح من جسدها مثل بالونة وتختفي في السماء. ألا يقول ملاك الموت شيئًا للمُتوفَى قبل أن يستل روحه ويمضي؟! ربما يتنحنح كي تنتبه الجارات؛ فيفسحن له الطريق، يصفق بيديه حتى لا يشعر الأحفاد بالذعر، أو يصدر صراخًا وحشيًا في البرية.. يقولون إن الكلاب هي أول من تراه على ناصية الطرقات، لهذا السبب يتحول نباحها فجأة إلى عويل كئيب.

الخالة تريزا التي تجلس على كرسي هزاز، بصحبة التليفزيون كل ليلة، قالت لجاراتها المسنات مثلها إنها تشم رائحته في الحديقة المهجورة منذ ساعة تقريبًا. أمس سمعت صوته الوحشي

في التليفزيون يقرأ نشرة أخبار المساء؛ ثم توقف فجأة ونادى عليها. الجارات المسنات استغربن كلامها. للمرة الأولى تتكلم تريزا هكذا!

تطلعن إلى وجهها الهادئ؛ ثم رأين بكرة الخيط تتدحرج من يدها.

موسيقى للأعرج

من مسافة بعيدة رأيته يقفز من فوق الرصيف في عز الظهر. تصورته سليمًا مثل الآخرين، وسيعبر بالسرعة المتوقعة. الأصحاء يدركون بسهولة أن السيارة مسرعة أكثر مما يجب؛ فيهرولون بحلاوة الروح قفزًا مهما بدا شكلهم مضحكًا. أما هو فكان يكابد كي يفر من وجه سيارتي المقبلة. كتفه منخفضة مع التواء في ذراعه كأن الجانب الأيسر كله معاق؛ فكان يرتفع وينخفض بصورة لولبية غريبة.

كان راديو السيارة مرتفعًا على أغنية «اللي بتقصر تنورة»، انتبهت إلى أن حركة الأعرج انسجمت جدًا مع الإيقاعات الفلكلورية؛ كأنه يرقص على أنغامها أثناء عبور الشارع. غيرت المحطة سريعًا على راديو «سوا»، كانت بريتني تغني Cold As Fire فوجدت الأعرج غير حركته قليلاً لتتناسب مع طبقة صوت بريتني وخفة الموسيقى.

كان اكتشافًا بالنسبة إليّ أن حركات الأعرج لطيفة، وموسيقية، رغم أنني على مسافة منه، وأحكم نوافذ السيارة لاستمتع بنسمات المكيف؛ لكن صوت الموسيقى كان يتسلل بطريقة ما إلى جسد الأعرج أثناء عبور الطريق.

الزخنوق

اشتعلت النار في الحطب فوق سطح بيت خالتي أم خليل.

في «الزخنوق» الفاصل بين دار أم خليل ودار أبو عيطة كان «ع» الأبله و«أ» البارد معًا. «ع» انحنى بظهره إلى الأمام و «أ» يحاول بصعوبة لكنه يفشل في الإيلاج؛ فاقترح على «ع» أن ينام على بطنه أسهل.

كانا يرتديان ملابسهما العلوية فقط. «ع» خلع سرواله الكستور ووضعه إلى جانبه لكن «أ» الأكبر سنًا والأكثر خبرة اكتفى بإنزال بنطلون «الترنج» أسفل قدميه.

العم فرج رأى من مسافة أربعة أو خمسة بيوت دخانًا خفيفًا يتطاير في صهد الظهيرة قبل أن يتبين لسان النار؛ فصرخ: «حريقة يا جدعان». هبط من فوق السطح بالصديري والسروال القطني وهو يصرخ «حريقة يا جدعان في بيت أم خليل».

كان هذا كافيًا كي يتجمع ما لا يقل عن أربعين أو خمسين رجلاً وشابًا، لتطويق الحريق. في تلك اللحظة نجح «أ» في نصف إيلاج

تقريبًا؛ لكنه اضطر للانتهاء سريعًا مفزوعًا من صراخ وصياح الرجال والنساء على بعد خطوات منه، وفوق رأسه مباشرة.

ارتدى «أ» بنطلون «الترنج» في برود وبدلاً من أن يساعد «ع» أمره قائلاً: «غطي نفسك واخرج بعدي بخمس دقايق».

ما جعله مطمئنًا بعض الشيء، هذا الانبعاج الداخلي للزخنوق ـ تحت منور دار أبو نبيل ـ الذي يجعل رؤيتهما من الشارع صعبة، وحتى من فوق السطح هناك عشرات الحزم من القش والحطب تحول دون رؤية ما يحدث في الزخنوق.

«أ» خرج كأن شيئًا لم يكن، وتاه بسهولة وسط الشباب الذين يرفعون دلاء المياه في سلسلة بشرية تنتهي عند النهر القريب. أما «ع» فكان سيء الحظ لأن بعض المخلفات سقطت عليه وغطت سرواله، وإلى أن عثر عليه سقط عليه الكثير من رذاذ المياه وعيدان الحطب المشتعلة، بل سقطت حزمة كبيرة مشتعلة دفعته للصراخ والاستغاثة.

في اللحظة التي تمت فيها السيطرة على الحريق عثر الرجال على «ع» مصابًا بحروق طفيفة. رغم ذلك تعرض لكدمات أخرى على أيديهم لأن التفسير الوحيد لاشتعال الحريق أن هذا الأبله دخل إلى الزخنوق وأشعل عود كبريت.

المدرس والسلطان والمسيح

وقف الأستاذ معروف مدرس التاريخ، بسمرته وابتسامته السينمائية وأناقته، ثم سألني عن الاسم الكامل للخليفة العثماني «بايزيد»؟

ما يتبقى في ذاكرتي من الأستاذ معروف لا يزيد على «تون» صوته وملابسه وطريقته في الوقوف بيننا وبين «السبورة»، أو السير متباهيًا و«كشكول» التحضير بغلافه البني في يده مضمومًا إلى خصره. هو تقريبًا مسجون في ما تبقى لي من ذكريات عن مرحلة الثانوية، ولن يفلت من هذا السجن أبدًا. لا أتصور له مصيرًا معينًا مثل الموت في حادث سير أثناء الإعارة في قطر. ربما ما زال حيًا. لكنه بالطبع سيكون عجوزًا جدًا يجلس في صالة شقته المتواضعة، وليس معه «كشكول» التحضير، ولا أمامه طلاب مراهقون يسألهم عن الاسم الكامل للسلطان العثماني «بايزيد».

اجتهدت في الإجابة: اسمه عبد الله بن بايزيد! عبد الحميد بن بايزيد! الأستاذ معروف ظل يهز رأسه نافيًا. كان يستفزني بأسئلة صعبة؛ فأكابر كي لا أبدو جاهلاً. لهذا السبب اندفعت للإجابة أكثر

من مرة بتلفيق أي اسم لخليفة عثماني لا استطيع أن استحضر له صورة واحدة تدل عليه؛ لعل الأستاذ معروف أكثر حظًا منه؛ لأنه بقيت له في ذاكرتي ثلاث أو أربع صور على الأقل.

عرفتُ ـ لاحقًا ـ أن بايزيد هذا اسمه «بايزيد الأول» ابن السلطان مراد، اشتهر بلقب «الصاعقة» لسرعة انقضاضه على الأعداء، وقد أثار الرعب في نفوس ملوك أوروبا. خنق أخاه كي لا ينازعه الملك، وتحطمت طموحاته على يد تيمورلنك الذي أسره، ليموت في الأسر.

لا استطيع أن أتصور كيف يموت الملوك والسلاطين في الأسر؛ لكن أعجبتني صورة كان يروجها بايزيد عن نفسه بأنه سيطعم فرسه الشعير في مذبح القديس بطرس في الفاتيكان. بالتأكيد لن يحل العقل قريبًا هذه الألغاز التي أعاد خيالي تشكيلها في ثلاث صور:

ـ سلطان عثماني بائس بدين، شبه عار ومكبل بالسلاسل يتلوى من ألم رهيب في معدته.

ـ مدرس تاريخ عجوز يجلس في صالة شقته المتواضعة بعد رحلة مضنية لغسيل الكلى في مسجد أنصار السنة الذي يوفر رعاية طبية مجانية.

ـ فرس بيضاء عليها سرج أحمر تأكل الشعير في مذبح القديس بطرس غير عابئة بأحد، بينما المسيح المصلوب فوقها يعاني ألمًا هائلاً يمنعه من النظر إليها.

القارئ والكاتب في المدينة البحرية

وصل القارئ والكاتب إلى المدينة البحرية الخالية من السكان. القارئ كان يحمل حقيبة فارغة إلا من مرآة صغيرة.

أما حقيبة الكاتب فكانت ممتلئة بالروايات والدواوين ولفافات الحشيش وأفلام إباحية وأسطوانات موسيقى ونسخة من الكتاب المقدس أهدتها له عشيقته الثالثة.

كانت هناك سيارة صغيرة مكشوفة وبلا نوافذ. وضع الكاتب حقيبته في الصندوق الخلفي وفعل القارئ الشيء نفسه.

بالمصادفة كانت الحقيبتان متطابقتين باستثناء أن إحداهما خفيفة والأخرى ثقيلة جداً.

انطلق الكاتب بالسيارة وسار في الشوارع الخالية من البشر.

تأمل المباني والأشجار المزهرة. مر على الشاطئ ثم تمهل قليلاً أمام البحر، وتناجى مع الموج. لم يحتج الأمر منه إلى ذكاء شديد ليكتشف طريقة تصميم وترقيم الشوارع، وكيف يصل إلى بداية ونهاية المدينة في أسرع وقت.

كان يعي أهمية الوقت، وأن يعطي فرصة للقارئ كي يقوم هو الآخر بجولته المقررة قبل غروب الشمس.

يقضي الاتفاق أن يقوم كل منهما بجولة في المدينة؛ ثم يعودان عند نقطة التقاء متفق عليها، كي يتحدثا عما لفت نظرهما من معالم المدينة البحرية.

أثناء انتظار الكاتب في النقطة المتفق عليها اكتشف أنه يحمل الحقيبة الفارغة إلا من مرآة صغيرة

أما القارئ فركب السيارة الصغيرة التي بلا نوافذ، وانطلق في شوارع المدينة البحرية، وإلى اليوم لم يعُد.

رحلة النهار والليل

خرجنا مع بزوغ الشمس أنا وأمي وأبي. لا نحمل أي شيء في أيدينا. سرنا في طريق ترابي ممتد، على جانبيه صف نخيل قصير إلى درجة أن السباطة المثقلة بالبلح كانت في متناول يدي تقريبًا.

قلت لأبي: «أريد بلحة!»

شدني من ذراعي وقال: «لما يحمر»

كانت أمي صامتة وتداري وجهها عني.

في الطريق مررنا على بائع يقف وراء عربة خشبية ملونة بالأحمر والأصفر والأبيض والأزرق، وعلى قوائمها العلوية يعلق كرات وبالونات بكل الألوان كانت تتأرجح في الهواء.

ـ «الله.. كرة.. كرة جميلة يا أمي!»

أخرج أبي نقودًا من جلبابه الواسع ووضعها في يدي.

ـ «اشترِ لك واحدة وتعال بسرعة»

عدتُ فرحًا بالكرة لكن أبي عنفني بشدة ولكزني في صدري، وهو يسألني عن باقي الفلوس، لولا أمي جذبتني بعيدًا عنه، وضمتني إلى صدرها، دون أن تنظر في وجهي.

لم تدم بهجة امتلاك كرة سوى لحظة؛ ثم تلاشت بعد لكزة أبي. كتمت دموعي حتى لا يعنفني أكثر. واصلنا سيرنا، وفي الطريق تركت الكرة تنزلق خلسة من يدي.

من بعيد نظرت إلى الخلف؛ فرأيتها تطير في الهواء بخفة إلى أن علقت بين جريد نخلة.

طول الرحلة لم يسأل عنها أبي!

إلى أن وصلنا إلى ساحة الألعاب. رأيت أطفالاً يلعبون بالكرة، وآخرين يدخلون إلى صناديق ملونة وسط تصفيق أصحابهم. كان لكل صندوق مروحة من أعلى تجعله يشبه الطائرة، وكانت الصناديق تطير بالأولاد الصغار هنا وهناك؛ ثم تهبط بطريقة مرحة وتستقر بعد دقائق على الأرض، مرة أخرى.

لعبة مسلية، لو أمتلك صندوقًا وأطير به!

نهرني أبي عندما لمحني أمد يدي، وأحاول لمس أحد الصناديق الطائرة.

بعد العصر بقليل غادرنا ساحة الألعاب أنا وأبي.

لم تكن أمي معنا ولا أعرف أين اختفت في الزحام! أبي لم يخبرني أين ذهبت! ربما تاهت منا أو ركبت أحد الصناديق وطارت، لا أعرف!

رآني أبي أتلفت حولي؛ فأخبرني أن أمي قالت إنها ستلحق بنا عند النهر.

بعد أن كنت أسير بين أبي وأمي، مشيت وراء أبي متراجعًا خطوة أو خطوتين حتى لا يلكزني في صدري كلما أغضبه شيء. كنتُ أرى جسده يزداد انحناءً وشعره يبيض ويتساقط إلى أن وقفنا أخيرًا على حافة النهر.

خلعنا ملابسنا، وضمني أبي بين ذراعيه ـ لأول مرة ـ وهو يهبط بي في الماء. كان الماء دافئًا لكنني كنت مرعوبًا، وجسدي كله يرتعش وينتفض.

تركني أبي متشبثًا بجذع شجرة صفصاف وراح يسبح حولي، هنا وهناك. ثبَّت عيني على حركات جسده حتى لا يغيب كما غابت أمي.

وجدتني دون أن أترك جذع الصفصافة أقلد حركاته.

أناس كثيرون نزلوا، استحموا وذهبوا؛ لكن أبي ظل في النهر، كان يختفي عن عيني لدقائق ثم يظهر فجأة بالقرب مني.

بعد الغروب، رأيت أطفالاً يتشبثون مثلي بجذوع الأشجار وأعواد الغاب ونبات السمار. على بعد خطوتين كان أبي يمسك بطرف صفصافة ويغمض عينيه متعبًا وهو يلهث.

لأول مرة أرى وجهه بوضوح، مغسولاً في الماء.

بعد اختفاء الشمس، مر على الشاطئ رجل يحمل مصباحًا في يده. أحسست بالاطمئنان لضوء المصباح واهتزازه وانعكاسه على

سطح النهر. كلما ابتعد الضوء عنا كان قلبي ينقبض، ويزداد انقباضًا مع عتمة وسكون الماء.

لم لا أجرب أن أصل إلى القاع وأختبر عمق الماء؟!

مددت قدمي لأسفل دون أن أتخلى عن جذع الصفصافة؛ لكن القاع كان بعيدًا جدًا لا يمكن لقدمي أن تصل إليه وتلامسه.

رفعت رأسي فوق الماء مرة أخرى، ونظرت في اتجاه أبي.. لا أثر له!

صرخت في الليل:

«أبي»!

«أبييي»!

«أبيييييييييييي»!

كان صدى صرختي يتردد مثل تموجات صغيرة ويتلاشى.. عيناي تتلفتان في ذعر يمينًا ويسارًا:

«أبيييييييييييي»!

لا أثر لأبي بين الأجساد المتشبثة بجذوع الأشجار ونباتات الشاطئ.

تووووووت

كنتُ قطارًا.

أدفع رأسي بسرعة فائقة إلى الأمام ـ مثل «التوربيني» ـ فيجر خلفه كل جسدي الممتد. أحرك يدي ورجلي بطريقة آلية على طريقة قطارات البخار في الأفلام القديمة. كنتُ أصدر صوتًا منغمًا من فمي إلى مؤخرتي، صافرة طويلة تعلن دخولي المحطات:

«تووووووووووووووووووووت»

أطلقها طويلة بكل قوة حتى وإن لم تظهر لي في الأفق، محطة.

على فترات معينة كنت أتوقف. ألتقط أنفاسي؛ فيهبط ركاب ويصعد ركاب. ثم أمضي في طريقي:

«تووووت... تووووووت... تووووووووت»

أطلقها صاخبة حادة عنيفة فتزلزل الأرض من تحتي.

في لحظة من تلك اللحظات قفزت قطتي البيضاء من النافذة ولم تعد، وبسبب السرعة الفائقة واندفاع الهواء عبر النوافذ طار أيضًا الدفتر الذي كنتُ أسجل فيه أحلامي فقدته إلى الأبد!

وقبل دخول إحدى المحطات طار خاتم جدي المنقوش عليه رسمة «أبو زيد الهلالي».. كنت ورثته بعد وفاة الجد، ويومها شعرت أنني انتصرت على كل أعمامي.

«تووووووووووووووت»

رغم أنني كنت أقف في مكاني في فترات معينة، لم يكن باستطاعتي أن أتوقف لألتقط كل تلك الأشياء التي سقطت مني في الطريق.

"تووووووووووووووووت"

"تووووووووووووووووووووووووت"

أطلقها أكثر طولاً؛ فتقفز بي إلى الأمام بلا رحمة، كل الكلام المحبوس في داخلي يندغم في هذا الصوت الرتيب المتكرر المطوط:

«تووووووووووووووووووت»

أكثر ما آلمني أن الفتاة التي أحببتها وتواعدنا على اللقاء، وصلت متأخرة دقيقة واحدة إلى المحطة التي اتفقنا عليها بعد أن كنتُ قد غادرتها مطلقًا صيحتي:

«تووووووووووووووووووووت»

لعل فتاتي ما زالت جالسة في مكانها المعتاد تحت شجرة سرو، على رصيف المحطة، تنتظر مروري في زمن آخر، ومن يدري ألا تكون قطتي البيضاء أيضًا نائمة الآن في حجرها!

دقيقة، دقيقة واحدة فقط بين وصولها ورحيلي!

أي قوة في هذا الكون كله قادرة أن تعيد تلك الدقيقة إلى الوراء أو أن تسحب رأسي المندفع بعنف إلى الأمام، وتعيده إلى الخلف مرة أخرى؟!

من بعد هذه الدقيقة التي فرقت بيني وبين الفتاة التي أحببتها، لم تعد «تووووووووووت» التي أصدرها مثل «تووووووت» التي كنت أطلقها من قبل.

كوخ ست الحسن

رأيتها من بعيد وهي ترش المياه على التراب الجاف أمام الكوخ المطل على النيل. كان الكوخ مصنوعًا من أعواد الغاب ولحاء الأشجار ومطليًا بطبقة جافة من الطين والتبن. أمامه باحة مسورة تظللها نباتات ست الحسن التي تسلقت الجدران، وكست الكوخ كله بأزهارها البنفسجية الصغيرة ولمحت بين الأزهار طائر أبي الحناء بصدره المحمر يقف ساكنًا.. وبالقرب منه خلية نحل، وكانت هناك نحلة تطن وتدور في الهواء.

خمنت أن الفتاة وحدها في الكوخ.

كنت أسير متعبًا، أتصبب عرقًا. قلت لها:

«اسقيني»

توقفت عن الكنس ونظرت إليّ.

تركت مقشة النخل من يدها ثم غابت في الداخل. كان هناك ريش ناعم كثير متناثر في أرضية الكوخ، وكان صوت محمد قنديل

يغني «سماح يا أهل السماح.. لوم الهوى جارح»، والريش الناعم يتطاير خفيفًا على إيقاع الأغنية.

ظلال أشجار الصفصاف بامتداد النهر والنسيم ورائحة التراب المبلول وغناء محمد قنديل، كل هذا جعلني أشعر كأنني أقف على باب جنة الله، أي جنة أجمل من هنا؟! وددت لو أنام إلى الأبد أمام الكوخ!

عادت الفتاة وفي يدها إبريق فضي مبلل. ناولتني الإبريق فشربت وتركت الماء يبلل فمي وصدري، وحين رفعت رأسي كي أشكرها رأيتها تبتسم وتتأملني بعينين خضراوين.

مضيتُ في طريقي مسافة لا أتذكرها بمحاذاة النيل الذي كان يجري هادئًا وكأنه لا يجري؛ ثم وجدتني أعدو عائدًا نحو الكوخ، ورأتني الفتاة من الكوة المفتوحة قادمًا نحوها؛ فابتسمت.

ـ «توقعت عودتك»

كان الباب مواربًا فدخلت. وقفتْ أمامي، لا يبدو عليها الخوف أو الضيق من دخولي دون استئذان. ابتسامتها اتسعت أكثر.

ـ «اسقيني»

مدت يدها ببساطة في قعر الزير، وملأت الإبريق ثم فكته من السلسلة المعدنية.

ارتويت وتركت ما تبقى من الماء يفيض على جسدي.

ـ «اسقيني ثانية»

تناولت مني الإبريق وملأته لي أكثر من مرة، حتى كاد وجهها يلامس وجهي، ورأيت ذلك الزغب الأشقر الخفيف على حواف شفتيها. استدارت مبتعدة وهي تفك المنديل عن شعرها الذهبي الغزير. التفتت وسألتني:

ـ «أليس معك حقيبة؟»

قبل أن أجيب ناولتني الإبريق مرة أخرى، وأشارت إليَّ أن أسقي نبتة «ست الحسن» هناك، سرتُ حسبما أشارت وقطعت مسافة ليست طويلة ولا قصيرة إلى أن ظهرت لي درجات سلالم خرسانية.. كأنها مدخل بيت مهجور من زمن بعيد، ومن ثقب بين تلك الدرجات الخرسانية تمددت نبتة صغيرة لا تزيد على ثلاثة أشبار. كان ورقها الأخضر الذي يشبه ورق الملوخية ذابلاً ومغبرًا، فرحت أصب الماء أحممها وأغسل أعوادها الغضة.

لا أدري كم مرة كنت أعود إلى الفتاة فتملأ الكوز بابتسامة خفيفة. كنت أمضي إلى النبتة وأعاود رش المياه من أعلى، ومن أسفل، في المرة الأولى انتبهت إلى صوت أسمهان تغني في الراديو الصغير: «نادي وردك ياخولي، اوعى يجرحك شوكه واسهر عليه»، وفي المرة الثانية كان عبد الوهاب يغني وقبل أن أنتبه إلى الأغنية خفضت الفتاة صوت الراديو، وقالت لي: لو أزهرت النبتة، يمكننا أن نبني كوخًا جديدًا هناك».

وكلما خرجت ليلاً كانت تترك لي شمعة صغيرة على مدخل الكوخ كي لا أضل الطريق أثناء عودتي.. واصلت ري النبتة مرات ومرات إلى أن قالت لي إنها متعبة، ولم تعد تقوى على ملء الإبريق لي.

كانت مستلقية على السرير؛ ثم التفتت نحوي وسألتني وهي تسعل:

«هل أزهرت النبتة؟»

«مازلت أرويها»

سعلت ثم اعتدلت في فراشها، وهي تحدق فيّ:

«شعرك شاب كثيرًا منذ رأيتك أول مرة!»

تطلعت من كوة الكوخ إلى الخارج؛ فرأيت نفسي شابًا قادمًا من بعيد.

قصر الأموات

هبطنا من «الباص» السياحي أمام بوابة عملاقة. كانت منقوشة بزخارف عتيقة وتواريخ وأسماء باللغة الفارسية.

أشار الدليل: هذا هو القصر!

ثم مضى أمامنا بخفة جرو.

تأملت طريق الأشجار الصاعد أمامنا. كانت أشجار عملاقة طويلة تتعانق من أعلى لتشكل قوسًا ممتدًا بالكاد تتسلل منه أشعة الشمس في الصباح. تبدو الأشجار التي لا أعرف اسمها؛ كأنها في هذا العناق منذ عشرات السنين. غير مبالية بآلاف السياح الذين جاءوا وذهبوا، ومروا أسفل منها.

كان القصر الأبيض في نهاية طريق فرعي ناحية اليمين، وكنتُ أشعر برهبة غير مبررة. خوف غامض ينتابني من زيارة قصور الأموات هذه. ربما لهذا السبب يعتاد السياح أن يزوروها في أفواج صغيرة. يحتمون ببعضهم البعض. ربما أبالغ قليلا؛ فالناس كانوا

يدخلون ويخرجون أمامنا بألفة وهم يلتقطون لأنفسهم الصور التذكارية، وابتسامة كبيرة تملأ وجوههم. معظمهم كانوا مشغولين بتوثيق صور لأنفسهم داخل القصر وليس خارجه، وكأنهم يرغبون في الإيحاء بأنهم من سكانه الذين عاشوا فيه. لقطات على السلالم الرخامية العريضة بعروقها الصفراء الشبحية، لقطات في البهو الرئيسي وأخرى أسفل لوحة زيتية عملاقة لصورة برنسيسة شاحبة وحزينة، كانت تضع يدها على خدها.

من سيفكر في سبب حزنها أو حتى في مصير الرسام الذي أفنى الليالي في رسم ملامحها قبل أكثر من تسعين عامًا.. أو ما المكافأة التي قد تكون منحتها له مقابل رسم وجهها؟!

زملائي في الفوج السياحي انشغلوا هم أيضًا بالتقاط صور لبعضهم البعض بجوار رأس أسد ومنحوتة فارس برونزي فوق حصانه، كانوا يخفون نصف وجوههم خلف الأواني الفضية أو يلتقطون انعكاس وجوههم على المرايا والألواح الزجاجية، أحد الزملاء سأل الحارس الذي كان يجلس خارج الباب الرئيسي، إن كان يحق له الاسترخاء على تلك الأريكة لالتقاط صورة. لا أعرف لماذا كنت الوحيد بينهم الذي تجنب بشدة التقاط أي صورة له؟! كنتُ أشعر بأطياف سكان القصر وهي تتحرك حولنا، أنفاسهم، أصواتهم، ظلال أجسادهم وهي تسبقنا وتصعد السلالم إلى الطابق العلوي قبلنا، أسمع همسهم وهم منزعجون من بلاهتنا وتلصصنا عليهم، لوهلة لمحت البرنسيسة الشابة في لوحتها العملاقة وهي تبتسم وتغمز لي كأنها تغويني بالتقاط صورة بالقرب منها.

غادرت مسرعًا تحت وطأة دوخة خفيفة، وانتظرت زملائي على مقعد في الحديقة المواجهة لباب القصر الرئيسي. كان الجو الخريفي قد انقلب فجأة إلى زخات من المطر؛ فاحتميت بتعريشة أمام القصر، وعندما وصلوا إليَّ انتبهت إلى أنني فقدت الزر الأوسط من الجاكت الذي أهدته لي أمي في عيد ميلادي. استأذنتهم وعدت للبحث عنه في ردهات القصر متتبعًا الممرات نفسها التي سرت فيها. لا بد أنه سقط مني أثناء جولتي في الداخل.

في هذه المرة دخلت مندفعًا وليس في رأسي سوى العثور على الزر واللحاق بالفوج، وكان الدليل يراقبني من بعيد، ويستعجلني بإشارات يده. ما إن وضعت قدمي عند مدخل الردهة حتى شعرت بالرعب. لم يكن هناك أي زائر في القصر سواي. اختفى السياح جميعًا بكاميراتهم وضجيجهم وأحاديثهم التي تترك صدى مبتورًا في ممرات القصر، لا أحد سواي هنا وسط الأطياف التي رأيتها أكثر وضوحًا عن ذي قبل. كانت تسير وتمارس حياتها الطبيعية دون أن تبالي بي. من يسكن في قصر مثل هذا لن يتخلى عنه بسهولة، حتى بعد الموت! رغم ذلك استجمعت شجاعتي. لا قوة على الأرض ستمنعني من العثور على الزر الذي فقدته.

جريت مسرعًا بين أكثر من ردهة، أمام المكتب الرئيسي وصالة الطعام والبهو الواسع وقاعة المناسبات والمكتب الرسمي لصاحب القصر؛ لكن الخوف الذي ضاعف نبضات قلبي كان يمنعني من رؤية الزر المفقود، وقبل أن أعود مرة أخرى في اتجاه المدخل

الرئيسي رأيت البرنسيسة الشاحبة تغادر لوحتها الزيتية وتسير أمامي، وبألفة وبساطة مدت يدها الناعمة والتقطت لي الزر من جوار مزهرية عليها نقوش صينية؛ ثم التفتت نحوي وابتسمت.

وقفت مذهولاً وهي تقترب مني. خلعت الجاكت عني، وبدأت في رتق الزر وهي واقفة أمامي. كانت تحرك أصابعها الرقيقة كخياطة متمرسة، قبل أن تجذب الخيط بجانب فمها وتقطعه.

بالألفة ذاتها التي نلتقط بها صورنا التذكارية في القصور العتيقة، ساعدتني البرنسيسة الحزينة في ارتداء الجاكت وناولتني برتقالة؛ ثم ابتسمت لي للمرة الأخيرة قبل أن تعود إلى اللوحة التي كانت تحمل توقيع الرسام الإيطالي فرانشيسكو هايز، ولا أدري لماذا ظللت أردد اسم فرانشيسكو هايز في سري؟!

الخالة اليابانية

عاد العم الطائش بعد غياب سنوات وهو يجر في يده زوجته اليابانية؛ فتندرت نساء العائلة على قصر قامتها، وحسدنها على نشاطها؛ فهي كانت نشيطة كالنحلة تستيقظ قبلهن وتنتهي من الواجبات المنزلية بسرعة وخفة ثم تجلس وتتزين. كانت لا تتكلم وهي تعمل ولا تتكلم وهي تتزين، كأنها خرساء! فقط تأكل الأرز الأبيض والشيكولاتة وتنجب الأطفال لعمي، وبعدما تتخفف من بطنها المكورة تدور في البيت مثل فراشة بملابسها الملونة؛ فتثير هنا وهناك موجة عطرة.

رجال العائلة أيضًا استغربوا لأنها لم تذهب في يوم من الأيام إلى الطبيب، وقالت الجدة إنها امرأة ساحرة مسكونة بالشيطان. تعمل مثل الساعة لا تبكي ولا تتذمر ولا تتكلم! كانت الجدة تراقبها من بعيد بعين حذرة، وكنا نحن أطفال العائلة نحب حركاتها الخفيفة وألوانها الزاهية كأنها طفلة مثلنا.

وبعد أذان المغرب سمعت امرأة عمي الأكبر تقول لجدتي إنها عرفت اسم الساحر الذي تذهب إليه الخالة اليابانية، هكذا كنا نناديها، لوت جدتي شفتيها وقالت إنها منذ مجيئها وهي سبب الشقاء في عائلتنا، لم أصدق جدتي ولا امرأة عمي التي انتبهت إلى أنني سمعت كلامهما؛ فتوددت إليَّ وطلبت مني أن أسرق ثوب «الكيمونو» الذي جاءت به الخالة اليابانية من بلدها. فقد كان لديها «كيمونو» أبيض رائع، ومحفور به تطريزات زهرية ووردية غائرة.

هل «الكيمونو» الذي احتفظ بجماله رغم مرور السنين له علاقة بشقاء عائلتنا كما قالت جدتي؟!

في صباح اليوم التالي نادت عليّ امرأة عمي:

«نفذت المطلوب؟»

«تريدين أن أسرقه؟»

هزت رأسها.

لماذا أسرق «كيمونو» الخالة اليابانية وهي لم تضايقني في أي يوم؟!

لكزتني امرأة عمي وهددتني بأنها سوف تكوي «بلبلي» بملعقة حامية إذا لم أفعل.

دخلت متلصصًا غرفة نوم الخالة اليابانية، لا أدري أين كان عمي؛ فمنذ أن جلبها إلى البيت، ونحن تقريبًا لا نراه! شعرت بأقدام زوجة عمي الكبير، وجدتي، وهما تتسللان من خلفي.

وقفنا نحن الثلاثة حول فراش الخالة اليابانية، ورأيت «الكيمونو» مفرودًا بعناية بطول السرير. حملته الجدة وامرأة العم بلهفة؛ ثم أسرعتا بمغادرة الغرفة، ولم تمر سوى دقائق حتى سمع كل من في البيت صرخة مدوية وصوت ارتطام في الشارع؛ فهرولت العائلة كلها في اتجاه الصوت.

كانت الجدة أول من هبط إلى الشارع، اقتربت بعكازها، وقالت في نبرة شامتة:

«ألم أقل لكم؟! ملعونة ومسكونة بالشيطان، لم تصدقوا! الملعونة انتحرت!»

تطلعتُ بصعوبة من بين سيقان وأرجل أفراد العائلة، ورأيت الخالة اليابانية ممددة وسط الشارع وخيط دم رقيق يسيل على طرف فمها الصغير، وقد زمت شفتيها القرمزتين بقوة. ما لم أتوقعه أن جسدها المسجى كان ملفوفًا بكيمونو أبيض.

مملكتي مقابل امرأة

دعاني زميلي الروائي الملتحي للمشاركة في مهرجان أدبي في دبي، ونزلنا في فندق الجميرا الفخم؛ ثم اكتشفت أن الروائيين فقط هم من يحق لهم تناول ثلاث وجبات في المطعم الإيطالي أما من يحمل لقب «قاص» فلا يحق له سوى وجبة الفطور فقط. تضايقت وقررت ألا أستجيب لأي دعوة من أي مهرجان بعد ذلك إلا إذا تأكدت من حق القاص في الحصول على ثلاث وجبات.

صراحة لم أكن جائعًا إلى هذه الدرجة؛ لكن روائية لبنانية كانت تروق لي ورغبت في دخول المطعم والثرثرة معها.

كان يقف على مدخل المطعم صبيان كأنهما من أطفال الشوارع بملابسهما الرثة ورائحتهما المغبرة. صممت على الدخول وحين لمحني الزميل صاحب الدعوة نهض بهدوء وسحبني إلى داخل المطعم؛ لكنه اشترط عليَّ أن أجلس وحدي كأي قاص محترم حتى لا ألفت انتباه مسئول المطعم، وحذرني من الثرثرة وإزعاج الروائيين، قائلاً: «عذرًا، لن تستطيع أن تجاريهم في الكلام!» ثم جاء النادل ووضع أمامي طبقًا به قطعة واحدة من الثلج!

كان الروائيون يثرثرون حول فتاة أجنبية تعزف على البيانو. اكتفيت أن أبتسم من بعيد للروائية اللبنانية، وأنا أطالع صدرها العرمرم وأتنهد وأهز رأسي حسرة. هي كانت تبتسم لي، وأيضًا هزت رأسها هزة خفيفة وراحت تنفث دخان سيجارتها في اتجاهي بطريقة مثيرة، أو أنا تخيلتها مثيرة.

لا شك أنها روائية نزقة!

أثناء انصرافي وبطريقة لطيفة، دون أن يشعر أحد، صافحتها خلسة وأعطيتها رقم غرفتي في ورقة صغيرة، وتوقعت على الأقل أن تتصل بي ونخرج للتمشية على البحر في الليل أو شرب كأسين في بار «٣٦٠».

رتبت نفسي أن أكون جريئًا أكثر وأدعوها إلى غرفتي على كأس براندي فرنسي، واستبدت بي الرغبة في عضعضة حلمة أذنها.

ظللت منتظرًا اتصالها إلى أن غفوت، وعندما سمعت الطرق الخفيف، نهضت وفتحت الباب؛ فرأيت زميلنا الروائي الملتحي صاحب رواية «معًا إلى الأبد». كان يرتدي جلبابه الأبيض والطاقية الشبيكة ويدعوني إلى صلاة الفجر جماعة، كنتُ أشعر بعدم التوازن من أثر السكر ولا أعرف كيف نمت كل هذا الوقت!

حاولت التملص منه؛ فقلت له:

ـ «للأسف يا صديقي أنا درزي مسيحي».

حرصتُ ألا أكون فجًا معه. ابتسم وقال بإصرار: «وليكن.. اعلم يا زميلي العزيز أثابك الله أنك لو واظبت على صلاة الفجر جماعة ثلاثين يومًا ستشعر بسعادة ولذة.. لذة لم تذق مثلها قط!»

كان يثرثر بثقة كأي روائي، وطريقته في نطق كلمة «لذة» قرصتني وذكرتني مباشرة بصدر الروائية اللبنانية وشفتيها وهي تنفث سيجارتها.

لستُ متأكدًا إذا كنت قد استسلمت لإلحاح الزميل الروائي الملتحي، وخرجت للصلاة معه أم لا! كل ما أتذكره بعد ذلك أنني وجدت نفسي في صحراء خالية من البشر والمباني والأشجار، لا شيء سوى مسجد صغير الحجم، أمامه طاولة عليها عشرات النسخ من رواية «معًا إلى الأبد». اقتربت وجلاً من باب المسجد المفتوح؛ فرأيت شيخًا معممًا يعطيني ظهره وهو يجلس في هيئة التحيات، ويتمايل خفيفًا إلى الأمام. بدا من انحناءته أنه عجوز طاعن في السن؛ فناديت من بعيد:

ـ «هل أدخل يا مولاي؟»

سمعت صوتًا أجش يشبه صوت الفنان محمد السبع في أفلام الأبيض والأسود:

ـ «ستعيش لحظات سعادة عابرة.. وحزنًا طويلاً طويلاً».

ناديته مرة أخرى:

ـ «مولاي! أدخل؟»

ـ «ستعيش لحظات سعادة عابرة.. وحزنًا طويلاً طويلاً»

ـ «مولاي!»

أخيرًا التفت الشيخ العجوز ناحيتي؛ فرأيت وجهه محروقًا ومتفحمًا، أسرعت هاربًا، وقبل أن أتجاوز سور المسجد الخارجي جذبتني يد حارس يرتدي خوذة ويحمل رمحًا، ودون أن يتكلم معي أعطاني سيفًا خشبيًا وربت على كتفي؛ ثم خلع خوذته ووضعها فوق رأسي.

كنتُ متضايقًا لأنني فقدت أثر الروائية اللبنانية الشقراء وبدلاً من أن أمسك يدها وأقبلها وجدتني أسير في الصحراء وأحمل سيفًا خشبيًا؛ ثم ظهر لي من دون توقع سور من أشجار الآس بزهورها البيضاء.

رحتُ ألوح بالسيف في الهواء وأجري منتشيًا، إلى أن وصلت إلى نفق مظلم، ورأيت على مدخله الملك ريتشارد الثالث، ربما لأنني كنتُ مفتونًا بمسرحيته.. كان واقفًا بجوار رأس حصان مبتور، وهو يصيح صيحته الشهيرة:

ـ «مملكتي مقابل حصان!»

اندفعت أقلد صيحته بطريقتي الهزلية:

ـ «مملكتي مقابل امرأة»!

كلانا راح يصيح في اتجاهين مختلفين. هو يصيح: «مملكتي مقابل حصان»، وأنا أصيح: «مملكتي مقابل امرأة».

كنت أصيح وأجري وألوح بالسيف داخل النفق، وكنتُ أسمع خرير الماء تحت قدمي. لم أعد أرى شيئًا عدا يدي وهي تطوح السيف يمينًا ويسارًا. أجري وأزعق: «مملكتي مقابل امرأة»؛ ثم ضاق بي النفق فوضعت السيف في فمي، وأكملت طريقي حبوًا إلى أن وصلت إلى لسان صخري يمتد داخل البحر، وفي نهايته بار «٣٦٠»، موسيقى صاخبة تصدح حوله.. كان البار مزدحمًا بشباب وفتيات أوروبيات، دخلت شاهرًا سيفي فرأيت الروائي الملتحي يسكر مع الروائية اللبنانية التي كانت تدخن بنفس طريقتها المثيرة؛ فصرخت منقضًا عليهما بالسيف الخشبي: «الله أكبر».

هروب جسدي

وأنا أشرب قهوة الصباح في البلكونة انتبهت إلى أنني لم أرتد جسدي. لم أكن أرى يدي وهي تحمل فنجان القهوة، ولا هذا الظل الممتد إلى جواري! أين نسيته؟ ربما ما زال نائمًا في السرير كسولاً كعادته أو أنني نسيته بعد الاستحمام معلقًا على المسمار وراء باب الحمام الصغير!

أو...

أو طبقة البخار الخفيفة أثناء الاستحمام حجبت رؤيته؛ فهرب مني. تسلل من تحت المنشفة واختفى.

نهضت للبحث عنه في الأماكن التي اعتدت تركه فيها، في غرفة النوم، في المطبخ والحمام، على الأريكة التي أستلقي عليها عادة أمام التليفزيون. عندما عدت إلى البلكونة لمحته من وراء القضبان المقوسة، وهو يسير في الشارع بانحناءته الخفيفة المعتادة.

«هذا هو جسدي! هذا هو!»

اندفعت على السلالم مسرعًا وراءه، كي ألحق به قبل أن يهرب ويختفي إلى الأبد. لا أدري كيف شعر أنني خلفه واختفى.

وقفت أتلفت على ناصية الشارع، وأبحث عنه بعيني وسط زحام المارة! من بعيد رأيته يخلع حذاءه ويجري حافيًا تحت المطر الخفيف؛ ثم زاغ مني في شارع جانبي موحل بالطين، وكل الدكاكين فيه مغلقة. ليس في هذا الشارع الضيق سوى أنا وجسدي، وكنت أسمع ضحكاته الرنانة حتى بعد ما اختفى ولم أعد أراه.

فتحت فتاة شرفتها فجأة في الطابق الأرضي في بيت مطلي بلون أزرق، وأمامه بستان ورد؛ فسألتها:

«رأيت جسدي؟»

هزت رأسها ونفت بسبابتها أن تكون رأته؛ ثم أغلقت الشرفة في وجهي وهي غاضبة.

ابتسامتها المرتبكة قبل أن تغلق الشرفة أوحت لي أنها متواطئة معه، وأن جسدي قد يكون مختبئًا مني الآن وراء شجرة الياسمين هذه.. ما الذي يمنعه أن يتسلق شرفة الفتاة، ويختبئ أسفل سريرها؟!

كان جسدي دائمًا مولعًا بلعبة الاختباء في أماكن لا أتوقعها؛ ثم يتركني أطارده حيثما ذهب. مرات كثيرة أوقعني في مشكلات لا حصر لها؛ مرة بات إلى الصباح على مقهى في شارع فيصل يشرب الشاي باللبن، ومرة ظل محبوسًا في حمام شقة جارتنا

عندما وصل زوجها فجأة، لا أدري ما الذي يرعبه ويجعله يفر مني بهذه الطريقة؟! لماذا لا يترك لي فرصة كاملة كي أرتديه؟ بعدها نستطيع أن نذهب نحن الاثنان حيث نشاء!

مرة بالكاد ارتديت الرِجل اليمنى؛ ثم فر مسرعًا قبل أن أكمل ارتداء الرِجل اليسرى، انطلق يطارد فتاة في أزقة بين السرايات إلى أن دخلتْ محل أبيها الجزار الذي انقض على الساطور وطارده بصحبة كلبه الدميم. وفي مرة أخرى وبعد أن ارتديت نصف الرأس فقط، قفز جسدي من النافذة وغاب عني أسبوعًا كاملاً قضاه متسكعًا على شاطئ الإسكندرية.

لماذا يفر مني هكذا؟ هل يبحث عن شخص آخر يرتديه؟ يشعر أننا لا ننتمي إلى بعضنا البعض! لم يخلق أحدنا للآخر! كأن خطأ ما أوقعنا في مصير مشترك، صدفة قدرية جمعتنا هكذا بلا أي انسجام، ولا أحد منا يملك حق الاعتراض على الآخر!

غادرتُ زقاقًا مهجورًا مع اندفاع المطر، وكنت أسمع لهاثه يدوي في أذني، كأنه يجري في مكان قريب حولي.

على شاطئ البحر في ذلك المقهى المزدحم بوجوه الغرباء رأيته يتطلع إليَّ خلسة من وراء حافة الجريدة، وهو يدخن الشيشة رغم أنه يعرف أنني لا أطيق رائحة الدخان.

وقفت في مكاني وابتلعت ريقي. زاد يقيني أنني لن أسترد جسدي أبدًا طالما أطارده. لماذا لا أعود إلى شقتي وأترك له

حرية القرار، إما أن يعود إليَّ بمزاجه أو يهرب مني إلى الأبد.. يُريح ويرتاح؟!

خلعت ملابسي في الحمام الصغير، واستسلمت تحت مياه الدش الدافئة بعد الجري والتعب واللهاث تحت المطر، وبينما كانت عيناي مغمضتين بسبب رغوة الصابون شعرت به يتسلل إليَّ متعبًا. عاد هكذا من تلقاء نفسه وارتداني، كانت لحظة امتنان بحضوره لم تدم أكثر من ثوان؛ فبمجرد أن جلست أشرب قهوتي في البلكونة رأيته يجري في الشارع لكنه هذه المرة تعلق بخيط بالونة حمراء طارت به إلى السماء.

خطاب شكر للرواد الخمسة

طرقت الباب لم يرد أحد.

وجدته مواربًا فدخلت بهدوء. سمعت أصواتهم تأتي من ناحية الصالة الرئيسية. كان البيت مكونًا من طابقين على طراز عربي ومزدحم بأثاث ضخم، ورائحة عتيقة. تشبه رائحة خميرة الخبز.

كان الخمسة في انتظاري. لا يقل فارق السن بيني وبين أصغرهم عن ثلاثين عامًا. خمسة مذيعين مخضرمين، جميعهم على المعاش الآن.

بعدما تناولنا غداءنا، صينية سمك في الفرن، بصلصة الطماطم والبصل وأرز صيادية، جلسنا في ركن مجاور لمائدة السفرة نشرب الشاي والقهوة.

أخرج زميلهم القصير البدين ورقة بيضاء وقلم حبر أنيق؛ ثم رفع نظارة القراءة المعلقة بسلسلة ذهبية في رقبته، وضبطها على عينيه وبدأ في تدوين ملاحظات. كان يتصرف بهدوء شديد.

وكانوا متفقين على كتابة خطاب شكر باسمهم جميعًا، بمناسبة تكريمهم في اليوبيل الذهبي لتأسيس التليفزيون.

نظر صاحب السالفين الطويلين نحوي نظرة مواربة، وكان هو من دعاني إلى هذا اللقاء، قال إنه يريدني في أمر بالغ الأهمية وعزمني على أكلة السمك الشهية هذه، وكنت استغربت اتصاله لأننا لم نتواصل منذ خروجه على المعاش قبل خمس أو ست سنوات.

فجأة قهقه ضاحكًا وحمد الله لأن صاحبهم «عبد العزيز» مات الخميس الماضي، ولو كان حيًا لم يسمح لأحد غيره بقراءة خطاب الشكر! بدوا جميعًا ممتنين مثله لوفاة صاحبهم «عبد العزيز» قبل أيام قليلة من حفل التكريم.

اقترح زميلهم الأصلع، وهو نفسه المضيف وصاحب البيت، توجيه الشكر للملك غازي الذي سبق عصره وأسس التليفزيون؛ لكن زميلهم البدين المنهمك في تدوين الأفكار الرئيسة للخطاب اعترض لأن الملك الحالي لا يطيق سيرة جده أساسًا، ولا يجب أن ننسى أن الحفل سيكون بحضوره وتحت رعايته.

أيضًا كان هناك اقتراح من زميلهم الرابع الكفيف، الذي يرتدي نظارة سوداء، بضرورة ذكر أسماء مجموعة أخرى من الزملاء المؤسسين فارقوا الحياة في السنوات العشر الأخيرة منهم عبد العزيز.

اقتراح ذكر الزملاء الأموات كان مثار سخرية من معظمهم لأن الخطاب بهذا الشكل سيبدو مرثية كئيبة لا تناسب أجواء الاحتفال

وقد يتضايق منه الملك فينصرف قبل موعد التكريم، إضافة إلى أن مثل هذا النوع من المراثي العشوائية تتساوى فيه رءوس النبلاء بالحقراء كما قال المضيف الأصلع قبل أن يضيف: تخيلوا، نستذكر المرحوم فلان، وفضل المرحوم فلان، وندين جميعًا لاقتراح المرحوم علان، معقول!

ضجوا بالضحك في اللحظة التي جاءت فيها الخادمة السمراء بصينية الحلوى. كانوا يختلسون النظر إلى ثدييها المكورين؛ فتلمع أعينهم لمرأى الثديين وهما يكادان يقفزان من فتحة فستانها كلما انحنت ووضعت طبق الحلوى أمام أحدهم، وضعت أطباق الحلوى ثم عادت ودارت عليهم بأكواب الشاي. كانوا يشغلونها بأي شيء كي تعود وتنحني وسط دائرتهم.

ومن وراء الجميع مرت عجوز أجنبية، خمنت بسبب طولها الفارع أنها سويدية. مجرد تخمين لا دليل عليه! على الأرجح هي زوجة المضيف، الذي يبدو أكبر الحاضرين سنًا، وإن كان تخمين أعمار هؤلاء العجائز أمر خادع جدًا.

من بعيد، ابتسمت لنا العجوز السويدية بامتنان، واطمأنت بعينيها على ترتيبات الضيافة؛ ثم عبرت الصالة إلى مكان ما في الخلف. خمنت أنها ستذهب للاسترخاء تحت الشمس في الحديقة، وتقرأ مجلة نسائية أو تنشغل بتقليم أظافر رجليها.

أصغر الخمسة ـ حسب تخميني ـ كان أسمر الملامح ظل صامتًا معظم الوقت. بدا وجهه ضامرًا بقسوة، كأنه يعاني من مرض فتاك.

أخيرًا تكلم واقترح عليهم قبل كتابة خطاب الشكر أن يقرأوا أولاً كتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين، و «لماذا أنا ملحد؟» لإسماعيل أدهم وكتابين آخرين لا أتذكرهما الآن.

كل ما أتذكره، أنها كلها كتب قديمة مر على صدورها أكثر من ستين أو سبعين سنة. شرح لهم أن قراءة هذه الكتب أفضل علاج للقضاء على الصراصير التي انتشرت هذه الأيام في الشوارع والصحف والقنوات التليفزيونية؛ ثم شد جسده بعصبية كأنه يخطب فيهم وقال: أقسم لكم أن قراءة «قلب الليل» أفضل من الجلوس على الكرسي في قاعة التشريفات خمس ساعات في انتظار وصول الملك، كي يتعطف علينا بدرع زجاجي وهو بالكاد ينظر إلينا.

هنا رفع البدين رأسه وتوقف عن تدوين الملاحظات، وقال ساخرًا: فعلاً، لا تنسوا، الأمن الوطني لن يسمح لأحد بالذهاب إلى الحمام قبل أن يغادر الملك!

صاحب السالفين الطويلين قال دون أن يتخلى عن نبرته الساخرة: خمس ساعات؟! يخرب بيت شيطانك! ولو البروستاتا انفجرت!

قهقهوا، وعاد العجوز الأسمر للكلام منفعلاً: من قال إننا نستحق التكريم أيها السادة؟ ماذا فعلنا للبلد؟! هه، أخبروني! ماذا فعلنا؟ هل فعلنا أكثر مما يفعله أي قواد يؤدي عمله؟ انظروا إلى أحوالنا، الملك الحفيد أسوأ من الملك الجد! والناس الآن أسوأ من الناس زمان، والشوارع أسوأ من الشوارع أيام الاحتلال، لو كنا

نجحنا في إقناع الناس بأي فكرة لأصبح من حقنا التكريم، انظروا حولكم، كل الدول الآن مهووسة بالدجل والشعوذة، أمريكا لا تختلف عن زامبيا، وأنظمة قاتلة لا أكثر ولا أقل. هل تعتبرون أنفسكم ساهمتم حقًا في بناء دولة سعيدة؟ هل تعرفون الخرسانة المطلوبة للدولة السعيدة؟

ثم سكت فجأة. كان من الواضح أنه لم يكمل فكرته لكن خيط الكلام انقطع منه.

ابتسم المضيف ابتسامة خفيفة. مسح صلعته وقال: أعوذ بالله من أفكارك يا شيخ، أنت كما أنت، شيوعي ولن تتغير! تخيلوا لو الجلسة كلها كانت مراقبة؟!

صاحب السالفين الطويلين نبه زميلهم البدين الذي يدون قائلاً: هذا الهراء كله خارج المضبطة. اعتبره أي كلام «تحت الهوا»؛ ثم أخرج من جيبه قلادة ذهبية تشبه «السبحة» وقال: انظروا، هذه القلادة أهداها هارون الرشيد لجاريته زمردة، وزمردة أهدتها لعشيقها السري، جدي الأول، من أكثر من ألف سنة ونحن نتوارثها في العائلة؛ لكن المشكلة أننا اختلفنا هل نسميها قلادة هارون الرشيد أم نسميها قلادة زمردة؟!

تركتهم يتحسسون فصوص القلادة بأصابعهم، ونهضت لجلب المزيد من الحلوى والفاكهة في طبقي، وبعدما انتهيت من الأكل ابتسمت شاكرًا لهم دعوتي على الغداء. وقفوا بتثاقل وأحاطوا بي عدا العجوز الأسمر والكفيف.

بدأت في مصافحتهم وأنا أردد عبارات مجاملة: «أنتم أساتذتنا الكبار.. أنتم الرواد وحملة مشاعل التنوير، نحن نتعلم منكم...» إلى آخر هذا الهراء، وقبل أن أصل إلى الباب الخارجي ناداني زميلهم البدين فوقفت في مكاني. نهض ورائي وعند الباب سلمني الورقة التي كتب فيها الخطاب بخط منمق، وقال لي إنهم اتفقوا منعًا لأي حساسية تتعلق بالأقدمية أن ألقي خطاب الشكر نيابة عنهم جميعًا.

ولما جاء موعد حفل التكريم، ارتديت بدلة رمادية أنيقة، وجلست وخطاب الشكر في يدي، في انتظار أن تنادي عليَّ مذيعة الحفل.

وأثناء الوقت الطويل في انتظار الملك بحثت بطرف عيني عن الرواد الخمسة في الصفوف كلها، وعلى الجانبين؛ فلم أر أحدًا منهم. فقط لمحت زوجة المضيف، العجوز السويدية، كانت ترتدي ثوب حداد أنيقًا وتجلس على الطرف الآخر من المسرح وبجوارها خادمتها السمراء، وحين التقت نظراتنا هزت رأسها لي على سبيل التحية وابتسمت وهي تداري دموعها.

معارك قديمة

حملت حقيبتي ووصلت إلى عزبة البرج. كان الوسيط أصر أن أدفع خمسين ألف جنيه، على أن تقلنا صباح الجمعة المركب «ميادة» مع نحو عشرين شابًا آخرين، وإن لم يحدد لنا موعد وصولنا إلى اليونان.

سرت على الشاطئ أفتش بين عشرات المراكب الراسية في النيل، على المركب «ميادة»، حين ظهر لي أربعة شباب أشهروا سيوفهم في وجهي. سألني أطولهم باللغة الفصحى: هل حاربت في معركة الجمل مع علي أم مع معاوية؟

ارتبكت وقلت: «يا عم دي معركة قديمة قوي من قبل ما أتولد بألف سنة»

غرس الثاني طرف سيفه في صدري، وقال باللغة الفصحى أيضًا: «ومن منا لا يشارك في معارك قديمة؟»

زوجتي والحية

وجدتني مستلقيًا على الرمل في ممر مهجور، مشلول القدمين. كنت أسند رأسي إلى وسادة صغيرة وأحدق مذعورًا. من خلف كومة رمل صغيرة أطلت حية رقطاء، وراحت تخرج وتدخل إبرتها كأنها تتذوق الهواء.

لم تهاجمني كما توقعت. كتمت أنفاسي وانتبهت إلى وعاء به ماء قرب يدي، ولشدة ذعري بادرت برش عينيها المفتوحتين؛ فهزت رأسها وبخت بخة خفيفة بعيدًا عني، ثم انسحبت.

تنهدت بحذر؛ فإذا بالحية تطل من أعلى الكومة، فاندفعت لضربها بالوسادة التي كانت تحت رأسي، لأستيقظ على صراخ زوجتي بجواري في الفراش.

نزهة على البسكلتة

أرادت زوجتي أن تصالحني فأخذتني في نزهة على «البسكلتة» مثل عبد الحليم وشادية في فيلم «معبودة الجماهير». كانت تقود والمطر يهطل خفيفًا؛ فتحسن مزاجي قليلاً.

رحنا نغني أغنية الفيلم نفسها «حاجة غريبة»، فوجدنا أنفسنا أمام معسكر بوابته مخلوعة، ولمحت جنودًا نائمين على الأرض. وقبل أن ننتبه كنا مكبلين أمام لواء أشيب الرأس.

لم يشفع لنا تملق جهوده في استتباب الأمن، وإن لانت ملامحه عندما أخذني تحت إبطه وهو يحدثني عن الأخطار التي تحيق بالبلد هذه الأيام.

خمنت أنه سيتركنا نمضي بسلام؛ لكنه أصدر أمرًا بالقبض على زوجتي لأنها لا تملك رخصة قيادة «بسكلتة»، وحرر لي مخالفة اقتحام منشأة عسكرية بقيمة مائة جنيه! هي كل ما كان في جيبي؛ ثم نادى على جندي آخر وأشار إليه: «صادر البسكلتة لصالح المجهود الحربي».

وردة من حبيبة فيليب

ليس من عادتي كتابة تعليقات في هوامش الكتب أثناء القراءة. وفي المرة التي فعلت فيها ذلك كنتُ متأثرًا بتعاسة البطل في الحب؛ فكتبت في آخر صفحة: «أشعر كأنني فيليب».

وحين اختفت الرواية من مكتبتي، سألت أختي فأخبرتني أن صديقتها الحميمة طلبت كتابًا تقرأه في الإجازة الصيفية فأعارتها إليها.

نسيتُ ما كتبته، ونسيت أن أختي أعارتها إلى تلك الفتاة الخمرية، ومر على هذه الواقعة أكثر من عشرة أعوام، حين عثرت يدي بالصدفة على الرواية مكدسة مع أشياء أخرى لي. فتحتها فطالعتني بقايا وردة ذابلة، وفي آخر صفحة، وأسفل ما كتبتُه مباشرة، كتبتْ الفتاة الخمرية: «تمنيت أن أكون حبيبة فيليب»

جمال لا يقاوم

وجدت سورًا فقفزت من فوقه. وراء السور رأيت بستانًا من كل الأشجار، كل الفواكه، كل الزهور. صورته بكاميرا كانت في يدي. كنتُ فرحًا بالصور التي انطبعت في قلبي قبل أن تنطبع في ذاكرة الكاميرا، وأثناء انشغالي بالتقاط صورة لأجمل زهرة رأيتها في حياتي، أمسك الحارس بي وأخذني إلى صاحب البستان.

سألني: «ماذا تريد يا صبي؟»، قلت: «جمال لا يقاوم!»

هز رأسه وقال: لكنك قفزت فوق سور غيرك! فأعدت القول: «جمال لا يقاوم!»

ـ «ازرع بستانًا لك تصبح غنيًا مثلي».

ـ «أعطني بذرة أبدأ بها»

استدار صاحب البستان إلى الحارس الذي كان يمسك بي، وقال: «عذبه بالجَمال حتى يعثر على البذرة»

طريقي إلى الله

رأيت كف يدها في عتمة النافذة البعيدة مثل نقطة ضوء، وسمعت صوتها يحذرني:

«لا تقترب!»

هتفت:

«لا مفر»

سألتني: «والذنوب؟»

قلت لها: «الجمال طريقي إلى الله.. ليس لي طريق آخر»، وواصلت السير.

العدسة المكبرة

كان الأمر يتكرر هكذا. أرى الأشياء غليظة ضخمة، كلما أمعنت النظر فيها تكبر وتكبر؛ فتصير فردة الحذاء سفينة، وطبق الأرز بحجم مخزن غلال. الكراسي، الطاولات، الأشجار، البشر، الأيادي... كل شيء يقع عليه نظري كان يتضخم كأنني مسجون في عدسة مكبرة أبحلق فيها إلى أن أصاب بالدوار ويغمى علي!

أعاود الانتباه فأرى كل الموجودات حولي كالعهن المنفوش، فقاقيع تتطاير خفيفًا في الهواء وتتلاشى، تلامسني وتنفجر بخفة لا يصدر عنها صوت. أعيد البحلقة ثانية فتعيد الأشياء سيرتها الأولى، تغلظ وتكبر وتتضخم إلى ما لا نهاية.

وبين الثقل والخفة كنت أصرخ: «ألن ينتهي العقاب؟!»

عشق كلابي

اعتلى الكلب ظهر الكلبة وفي لحظة الهبوط ظل ملتصقًا بها. كان ذيلاهما يتمايلان، ويمنعان عنا رؤية سر الالتصاق في المنطقة الحميمة.

رأس الكلب ناحية الشمال ورأس الكلبة إلى الجنوب. كل منهما يسحب الآخر بشدة في اتجاهه. غير معقول أن تمر نساء الحارة ويرين هذا العشق الكلابي الفاضح!

التقطنا الحجارة وبدأنا رجمهما عشوائيًا، وهما يجُران بعضهما يمينًا ويسارًا. في لحظة يبدو مستسلمًا وهي تسحبه وتفر به، وفي لحظة أخرى يسحبها هو هربًا من أذى الحجارة.

كنا في حيرة أيهما الذي يتمسك بالآخر بكل هذه القوة ولا يريد أن يفلته، كي نركز عليه قذف الحجارة. صرخ أكبرنا سنًا: «ركزوا على الكلبة»!

أقصر قصيدة في التاريخ

وقفت الشاعرة على المنصة. ظلت صامتة برهة من الزمن؛ ثم قبلت الميكرفون بكل حمرة شفتيها.

سمعنا جميعًا الصدى المحبب للقُبلة.

رفعت نحونا رأسها الملفوف بحجاب بني مطرز وقالت: «هذه أقصر قصيدة في التاريخ».

ملح البحر

خرجت البنت تلهو مع أمها، ولمست البحر لأول مرة بكفها الصغير. ولم تعرف كم هو مالح إلا عندما طفا جسدها على الماء.

ملاكمة الظل

استفزني أن ظلي كان يمتد على الجدار الأبيض أطول مني، فرحت ألكمه ويلكمني، إلى ما لا نهاية ظللنا نتلاكم، دون أن ينتصر أحدنا على الآخر.

الكاتب فى سطور

ـ شريف صالح.

ـ كاتب وصحفي مصري مقيم في الكويت.

ـ حصل على جائزة الصحافة العربية، وجائزة دبي الثقافية عن مجموعته «بيضة على الشاطئ»، وجائزة ساويرس عن مجموعته «مثلث العشق»، وجائزة الشارقة للإبداع عن مسرحيته «رقصة الديك»، وجائزة أفضل مؤلف من مهرجان أيام المسرح للشباب في الكويت عن مسرحية «مقهى المساء».

ـ أحدث أعماله رواية «حارس الفيسبوك» عن الدار المصرية اللبنانية ورواية للنائشة بعنوان «سوشانا والحذاء الطائر» عن دار شجرة.

ـ صدر له ست مجموعات قصصية أولها «إصبع يمشي وحده»، وأحدثها «دفتر الأحلام» عن مؤسسة أخبار اليوم، كذلك صدر

من إعداده وتحريره كتاب «يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو» ـ مختارات من القصص العالمية ـ عن كتاب العربي في الكويت.

ـ وفي النقد صدر له «نجيب محفوظ وتحولات الحكاية» عن سلسلة كتابات نقدية ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة.

فهرس

ـ على سبيل التقديم ٥
ـ لوكا ٧
ـ قلب إسكندراني ١١
ـ يمر هناك ١٤
ـ الرحلة البيضاء ٢٠
ـ جر الخيط ٢٦
ـ شعر غجري تتطاير منه الحجارة ٣٥
ـ مينادا ٥٧
ـ خطيئة الكعب ٦٤
ـ الغواية الأولى ٧٧
ـ عصر السنجة ٩١
ـ الطواف وسارق النحاس ١٠٩
ـ الخناجر السبعة ١٢٢
ـ الطاولة رقم ٧ في جروبي ١٣٤

ـ اجتماع سري للآلهة ١٣٦
ـ فتاة أوباما ١٣٨
ـ يد فاطمة ١٤١
ـ صوت الموت ١٤٣
ـ موسيقى للأعرج ١٤٥
ـ الزخنوق ١٤٧
ـ المدرس والسلطان والمسيح ١٤٩
ـ القارئ والكاتب في المدينة البحرية ١٥١
ـ رحلة النهار والليل ١٥٣
ـ تـووت ١٥٧
ـ كوخ ست الحسن ١٦٠
ـ قصر الأموات ١٦٤
ـ الخالة اليابانية ١٦٨
ـ مملكتي مقابل امرأة ١٧١
ـ هروب جسدي ١٧٦
ـ خطاب شكر للرواد الخمسة ١٨٠
ـ معارك قديمة ١٨٦
ـ زوجتي والحية ١٨٧
ـ نزهة على بسكلتة ١٨٨
ـ وردة من حبيبة فيليب ١٨٩
ـ جمال لا يقاوم ١٩٠
ـ طريقي إلى الله ١٩١

ـ العدسة المكبرة ١٩٢
ـ عشق كلابي ١٩٣
ـ أقصر قصيدة في التاريخ ١٩٤
ـ ملح البحر ١٩٥
ـ ملاكمة الظل ١٩٦
ـ الكاتب فى سطور ١٩٧